الإهداء:

إلى رجل عرفته اسما ونبضَ قلبٍ وحين غضبٍ

وزمنَ عشقٍ حدّ الفناء، إليه...

أبي، يرحمه اللّه.

إلى قمري تُضيء ليلي...

أمّي، سيّدة النّساء.

تصـدير:

كيف يكون كاتب ممكنا؟

الكاتب الجيّد يُغري أوّلا.

ويُقدّم السمّ بعد ذلك.

وفي أثناء الكتابة يسمّ نفسه.

كيف يكون قارئ ممكنا؟

القارئ الجيّد يتجرّع السمّ.

ولكنّه من النّشوة لا يموت.

عبد الكبير الخطيبي.

الدَّراجة الفرس.

إلى الذي جعل الابتسامة تسكنني.

زوجي وحبيبي: طارق.

– أبي، أريد فرسا في عيد ميلادي أو في أيّ عيد شئتَ.

ضحك لاعبا بخصلات شعري فأضفت:

– سنتّفق، سأتنازل عن كلّ الهدايا حتّى عن دميتي القادمة وسأكتفي بالحصان.
– ههههه يا لها من تضحية. اتّفقنا شرط أن أفعل متى أمكنني هذا.

أسعدتني استجابته. كنت أعلم أنّه لن يرفض، هو على استعداد لأن يهبني الدّنيا لو أمكنه. لم يكن يشبه الآباء. كان يشبه ذاتا أخرى لم أوفّق في التقائها فقرّرت أن أشبهه..

قلت بكلّ سذاجة الأطفال:

– أبي، سندّخر ثمنه معا في حصّالتي، موافق؟
– اتّفقنا، نحن دائما متّفقان، أليس كذلك؟

مددت يدي الصّغيرة أصافح يده تعهّدا باتّفاقنا. شدّ على يدي فشعرتُ أنّني قريبا سأمتطي صهوة جوادي وأركض.. أركب الدّراجة مع أبي. يُجلسني أمامه فأحبّ ساعديه أكثر. أنظر إلى ساقيه تتحرّكان

بانتظام فأكتشف كم أنّه ثابت، يكفيني أنّ الدرّاجة تسير في خطّ واحد لا تحيد عنه.

كانت درّاجة أبي سرّا اكتفيت بأن أستمتع به دون أن أفكّر في أن أكون صاحبته. لعلّ سرّ الدرّاجة كامن في أنّها لأبي. يقودها فأشعر أنّني على ظهر حصاني وأنّ عينيّ تتّسعان فتأسران ما يحيط بي وتجعلانه واحدا. أحتفظ بكلّ ما يطاله بصري فتتراكم الصّور وألتفت نحوه. أبتسم له فيبتسم كأنّه يسكن قفصي الصّدري الصّغير ويعلم ما يجول داخله. ما زلت أحفظ تفاصيل ابتسامته وأنا بين ساعديه على الدرّاجة/الفرس. أحيانا أشعر أنّه يتعمّد الإسراع ليجعلني أسابق الرّيح، ليجعلني أمتطي صهوة حصان أبيض – هكذا كنت أحبّ أن يكون حصاني–

ذات يوم سخرت أمّي من تعلّقي باللّون الأبيض وقالت لأبي:

– ما سرّ هذا اللون الأبيض؟ ألا يبدو الأمر مبكّرا على الفارس بالحصان الأبيض؟ ههه.

لم يُعجبني أن يكون غيري وأبي على الفرس فبكيت وآلمت دموعي أبي. قرّبني منه. احتضنني ووشوش في أذني:

– لا عليك، أمّك تمزح لا أكثر. كوني على ثقة: لن يكون الحصان لغيرك، كوني الفارسة وسيكون هو رهنَ إشارتك.

كأنّني حينها وددت إرضاءه:

– لا أحبّ هذا. أحبّ أن تكون معي تماما كما نحن على الدرّاجة.

رفع أبي حاجبيه مستغربا:

– أحقّا تحبّين أن أكون معك على ظهر حصانك؟

في الحقيقة كنت أودّ شيئا أكثر من هذا. كنتُ أودّ أن يكون بعيني حصاني على أن يحضنني ساعداه دائما. كنتُ أودّ أن تملأ روحُه الكونَ وأن يكون معي حيثما حللتُ. لم أستطع أن أقول له شيئا من هذا فاكتفيتُ بالابتسام وداعب هو أنفي لأنّه صار صديقي وشريكي وعينيْ حصاني.

اشترى لي حصّالة وقال:

– اليوم يبدأ مشروعنا..

يومها شعُرت أنّ أبي بعيني حصان فعلا وعشقت النّظر إليه حتّى متى كان نائما. لا أحد يعلم أنّني كنت أتسلّل إلى غرفته لأتأمّل وجهه

وهو نائم. لم أكن أعلم أنا أيضا أنّه يستيقظ كلّما قبّلته. كنتُ أظنّ أنّني بارعة في التخفّي وأنّه متى نام لا يشعر بي..

– اليوم نحن على موعد مهمّ..

هكذا قال لي أبي وأنا أحاول النّزول من على ظهر حصاني.

– ألا تحبّين أن نكون في الموعد؟ استيقظي صغيرتي.

– لا أحبّ، لا أحبّ النّزول من على ظهر حصاني..

ابتسم أبي:

– ما هذا؟ أتحلمين بالحصان؟

صوتٌ ما سكن أذني وأنا أتمطّط في فراشي. صار يحدّثني عن العودة مرّة أخرى إلى ظهر الحصان وأنّه لي وأنّ نزولي عنه لن يكون إلاّ لوقت قصير ثمّ أعود إليه لنكون في الموعد. فتحت عينيّ. كانت عينا الحصان تنظران إليّ فأدركتُ أنّه هو من وعدني بالعودة.

يومها لم أحبّ أن أفطر لكنّني فعلت من أجله. سارعنا بالخروج. كانت ساقا أبي سريعتين جدّا. أبدا لم يقُد هكذا. أمتعني الأمر. صرت أتنفّس ملء الكون واكتشفتُ أنّ الآباء يشاركوننا جنون الجري

ومسابقة النّفَسِ الهواءَ. أمسكتُ المقود ولامست يداي يديْه، صِرنا فارسين على فرس واحد فازداد ركضا وصارت ابتسامتي قهقهة وعلت حتّى شاركني أبي فقهقه ورفع يديه عاليا. شعرتُ أنّنا انتصرنا وأنّني أقود الدّراجة/الفرس وحدي. سكنتني الرّغبة في الطّيران وصورة ساقي الحصان وهو يعدو وشعره يميل يمنة ويسرة.

– انطلــق...

صحتُ عاليا فزاد أبي السّرعة وتشبّثت يداي بالمقود/اللّجام. كنّا سيّديْ الميدانِ وكان فرسُنا الأبيضُ يسابق الرّيحَ وضحكاتِنا التّي لا تنقطع.

عدنا وقد صرنا شريكيْ اللعبِ وعصيانِ الأوامر بالتأنّي والتعقّل. شعرتُ أن لا طاقة لي على شيء فهربت إلى غرفتي. أخرجتُ الحصّالة. أسكنتها معي الفراش. لمْ أدر كم مرّة مرّرتُ عليها يدي قبل أن يسرقني النّوم. شعرت أنّ شيئا ما داخلي يصعد حتّى تراءى لي. كان يُشبه غيمة صغيرة أو كومة من الصّوف توسّدتها. بلّغتني سلام حصاني فشعرت أنّه أقربُ من حصّالتي وأنّ لنا النّومَ على ظهور الجياد دون أن نسقط تماما كما رفع أبي يديه وبقيت الدّراجة ثابتة تُسابق ضحكاتنا.

لم أفكّر في أن أبلّغه شيئا، قريبا يكون هنا وسأحدّثه بما أريد. سأنام على ظهره وأمرّر يديّ على شعره الجميل وسيحرّك ساقه فرحا ويتحرّك جفناه ليحضنني وأنا أعتليه. أوشوش في أذنه حكاياي في المدرسة والبيت وسيكون لأبي النّصيبُ الأكبرُ. سأقول له إنّه بعينيْ الحصان وساقيه وأنّه يُحبّني تماما بعدد خطى الجياد وهي تدقّ الأرض لينتشي صاحبها ويسكنه حلم الطّيران إلى السّماء وإن موتا.. وسيقول لي حصاني إنّه يشتاق إلى لقاء أبي تماما مثلي.

لم يكن لي يوما حصان حتّى بعد أن ظننتُ أنّه يكفيني أن أتنازل عن اللّون الأبيض ليكون لي. اكتفيت بعيني أبي وساقيه ودرّاجتنا/الفرس. لم يتغيّر شيء.. ما زلت أعشق دراجته وأحلم بالفرس. أحدّثني عنهما وقد صارا معا أمنية. أعرف أنّني لن أراه مرّة ثانية وأنّه يبتسم لي كلّ يوم فتُضيء نجمة في السّماء وأنّه يتسلّل إليّ في نومي قادما على فرس أبيض.. الآن أُدرك جيّدا أنّ الفارس بحصانه الأبيض يسكن الأحلام وأنّنا ربّما لهذا ننام...

غبـــــاء.

"أنا لستُ جاريتك!"

رفعت صوتها كما لم تفعل من قبل. كانت تودّ أن تمدّ يدها لتصفعه كما فعل لكنّها لم تستطع، شيء ما – داخلها – خذلها، شيء ما قيّد يدها ليعلو صوتها مضاعفة. ورأى في صراخها تحديّا فأعاد الكرّة لكن بعنف أكبر: شدّها من شعرها. قرّب وجهها منه. حاولت مواجهته ببقايا ملامحها، نظرت إليه فاكتشفت للمرّة الأولى أنّه يشبه الشّياطين وأنّه قبيح جدّا.

– لا تفكّري في الصّراخ في وجهي مرّة ثانية، المرّة القادمة سأجعلك خرساء.

تعمّد أن ينطقها كلمة كلمة، كأنّه يحفر ما قال في ذهنها، مازال لم ينجح في ترويضها بعد بل لعلّها بدأت تتمرّد وعليه أن يجعلها بقايا إنسان حتّى لا تكرّر فعلتها.

هوت فارتطم جسدها بالأرض. كانت تُشبه دمية بيد طفل يعشق ألعاب الحروب.

– "الرّجال يحترفون وأد الأحلام."

الآن- وهي ملقاة على الأرض- تذكر جيّدا ذاك اليوم الذي حدّثتها فيه أمّها عن وهم السّعادة الثنائيّة بعد الزّواج. بدا لها كلام والدتها ظالِما أو ربّما غبيّا مليئا بالعقد ومظاهر الفشل. هي لا تعرف معنى أن تحَب، معنى أن يختارها رجل فيمنحها إمكان دخول عالم كثيرا ما حلمت به. أمّها لا تدري أنّ لكلام المحبّين سحرا لا يُفسّر وربّما لا يُصدّق. يومها قالت لها:

- بنيّتي، لا أحبّ أن أسرق هذا البريق الذي أرى في عينيك، فقط أحبّ أن تكوني أكثر واقعيّة لتكون حياتك أيسر أو حتّى أنجح، بعد الزّواج لا تحتاجين إلى الحب...

قاطعتها دون تفكير، كلّ ما يعنيها هو أن تثبت لها أنّها تأتي من غير زمنها وأنّها تتحدّث عن شيء لا تعرفه. لا تُصدَّق النصائحُ إلاّ متى صدرت عن خبرة فكيف ستصدّقها وهي تعلم جيّدا كيف تزوّج والداها؟

- لست مضطرّة لتكرار تجربتك حتّى أثبت لك أنّ للحياة وجوها غير التي يعرفها الآباء.

ابتسمت أمّها ثمّ أضافت:

– ولست مضطرّة لأراك بقايا إنسان لأثبت لك ما أقول، كم أرجو أن تُكرّري ما عشتُ، على الأقلّ سأكون قادرة على إيجاد الحلول وإنقاذك من مواقف عديدة، كلّ ما أخشاه هو أن أفاجأ بعالم لا أعرفه وأن لا تطالك يداي فأحضنك وأنت تذرفين دموع الخيبة والضّعف وموت الحلم.

بدت لها أمّها غريبة هذا اليوم، لعلّها تغار من هذا الذي جاء لـ"يسرق" ابنتها.

– أمّي، لا تخافي ، إنّه يحبّني.

– كم أخشى أن يمنّ عليك يوما أنّه قد أحبّك..

لم تكن أمّها على حقّ فها هو اليوم يمنّ عليها أنّها تتنفّس. حاولت الوقوف. هربت إلى فراشها. تمدّدت وأغمضت عينيها. كان عليها أن تهرب من كلماته، من رغبة مجنونة في بلوغ الحلم مع رجل، من غبائها حين كانت "مجرّد امرأة" فغفرت له صراخه في وجهها – للمرّة الأولى – وقد همّ بصفعها ثمّ تراجع. يومها أسعدها أنّه تراجع وودّت أن تقبّل يده لأنّها أثبتت لها أنّه يحبّها وأسعدها أكثر أنّه عاد ليطلب الغفران حتّى ظنّت أنّ قبلته على جبينها جعلتها سيّدة النّساء. لكنّه عاد

ليضربها وانتظرت طويلا أن يطلب الغفران ولم يفعل...كان صمتها كالرّمال تتسارع حبّاتها لتقتل زهرة أخطأت المكان.

– "حين تصمت المرأة يزداد الرّجل جبنا فيصرخ بصوت أعلى ويكسر أضلعا حوته ذات يوم وخبّأت له أحلاما كالأطفال."

هكذا صارت تردّد لنفسها كلّ ليلة قبل أن تنام ثمّ تنسى في تفاصيل الحلم ترنيمتها فتبتسم له وتنتظر طلب الغفران مرّة أخرى. لم تجرؤ يوما على أن تُخبر أمّها. مازالت تذكر يوم قالت لها:

– لا شيء يقتل الأمّ غير أن ترى ابنتها وقد قتلها حلم مجنون. لا تكوني حالمة فالحالمون مجانين أغبياء، ينفخون في الآخرين روحا سُرقت منهم وينسون أنّهم أحقّ بها.

ماذا تفعل الآن وقد كانت كذلك؟ ماذا تفعل وقد نسيت أنّ النّصيحة لا تفترض الخبرة؟ ماذا تفعل وقد صارت تُضرب لأنّها يجب أن تُضرب حتّى تستقيم الحياة؟ ماذا تفعل وقد صارت روحها تُسرَق ثمّ تطالب بالابتسام وإرضاء الرّغبات وإن كان ما يسكنها هو الرغبة في التقيّؤ؟ ماذا تفعل وقد صار صوت الباب وهو يُفتح يذكّرها بالعصفور

الذي لا يفكّر في الأكل كلّما فتحت نافذة القفص بل في إمكان الهروب وإن في غفلة من صاحبه ثمّ يدعو ربّه أن يدكّ المنزل بعدها؟ ماذا تفعل لتسرق روحها مرّة أخرى وإن ببقايا ملامح؟ ماذا تفعل لتستعيد ثبات خطاها وهي تعبر الشّارع؟

تراكمت الأسئلة وفكّرت في أنّ شيئا ما عليه أن يموت لتحيا. لأوّل مرّة تشمّ رائحة الموت! وتصوّرت أنّه لو عاد الآن لقتلته..

أرعبتها الفكرة فتكوّر جسدها واستعادت وضعها الجنيني. لم تكن يوما عدوانيّة ولا حتّى منتقمة وها هي اليوم تفكّر في.. ما هذا الشّيطان الذي سكنها؟ إنّها روح هذا الذي أحبّت ذات يوم نُفخت فيها ربّما حين قرّب وجهها منه.

يا له من عقاب أبديّ.. أن ينفخ فيها روحا مزروعة شوكا لا طاقة لها بها! إنّها بالكاد تحيا خيبتها ولا تفكّر حتّى في فهمها.. كم تخاف أن يدخل الآن، كم تخاف أن يشمّ رائحة الموت فيسابق رغبتها في الخلاص.. ليته يُطيل البقاء خارجا، ليته لا يعود، ليتها تتخلّص من رائحة الأجساد المتعفّنة، ليتها تعود طفلة فلا تمزّق دماها ولا ترى الحلم واقعا ممكنا.

تكوّرت حتّى اختنقت فعاودها البكاء وقدّرت أنّ أمّها تشاركها الخيبة وأنّ كلّ نساء الكون يبكين فَقْد الحلم كما يبكين فقد الأبناء.. علا صوتها. لم تكن تبكي. كانت تنحب، كانت تروّي رمالا تسابقت لتقتل زهرة أخطأت المكان. كانت تبكي وليدها، تبكيه وتلعن الرّحم الذي احتواه لأنّه سرق حقّها في الحياة..

الحالمون مجانين أغبياء.. ويصبحون أغبى متى صدّقوا إمكان اكتمال الحلم خارج المقابر...

افتراض.

يتراءى لها من بعيد متأمّلا معلّقا بصره بالسّماء. تصعّد الجبل الطّفل. تشعر بمشقّة الارتقاء إلى القمّة وإن لم تكن بعيدة..

– تبقى الجبال جبالا وإن دنتْ من الأرض وطالتها أقدام البشر.

يتناهى إلى سمعه صوت خطى تقترب. يتهيّأ: يأخذ نفسا عميقا وتزداد عيناه تعلّقا بالسّماء ويشدّ قبضته على بعض الحصى ثمّ يطلقها لتُصفّر الرّيحُ وتُنشد الحبّات لحن عودتها إلى الأرض.

نَفَسٌ آخر حلّ بالمكان، يشعر به عميقا وقد ازدادت السّماء إطلاقا والجبل علوّا. تبدو السّحب قريبة جدّا. أصوات ما تطرق سمعه، هو لا يفهمها لكنّه مع ذلك لا يُنكرها.

– لِمَ أنت هنا؟

– ولِمَ لا أكون؟ هنا أكون سعيدا.. أنا سعيد الآن. هنا أقرب طريق إلى السّعادة. هل عليّ أن أنزل وأقطع سعادتي لأركض خلفها من جديد؟

– طبعا لا بل تشبّث بها كما يتشبّث طفل بقطعة حلوى، لا تقتلها، انفخ فيها الرّوح من جديد كلّما خبت نارها.

تلحّفها لتكون هي الأرض والسّماء ولتكون أنت جوهرها..
انتقلتْ إليّ عدواك.. انظر حولك، أنا معك ألا تُحيّيني؟

– تحيّيني؟ إمم... من الحياة هي، أليس كذلك؟

– ربّما إذا ما عدت بالكلمة إلى الأصل.

– الأصل؟ تقصدينه هو؟ أرأيت نعود إليه دائما (هو).

صار يردّد: هو هو هو... ثمّ قال:

– ألا يُشعرك هذا الضّمير بالإطلاق، بأنّك خالصة نقيّة؟

– لعلّها حال البداية والرّغبة في السموّ والكمال.

– تخيّلي أنّ الحلاّج وابن عربي والبسطامي عاشوا زمننا، زمن الفيسبوك. حتما كانوا سيُحيلون هذا الفضاء اللّا مكاني إلى رحلة وترقّ رغبةً في الحلول.

– ربّما لأنّهم اكتشفوا الجوهر بثّوا أرواحهم لتحيا المطلق وقد حلّت فيه، ألست أنت بعضهم؟

– ربّما كلّنا بعضكِ.

– يا اللّـــه، ما أبدعك هذا الصّباح.. هل لي بالحلول فيك؟

– لا أدري، أشعر أنّك الكلّ وأنّي أدور حولك لأعود إلى ذات المكان..

– المكان، أيّها المدهِشُ، قيدٌ وكثيرا ما يكون قاتلا.

– صحيح، أنا وأنتِ نلتقي الآن مثلا ولكن أين؟ في اللّا مكان، لا مكان حقيقيّ. هو الزّمن فقط، ربّما سنتخلّص بسلطاننا يوما من أبعاد الزّمن أيضا، هي مسألة وقت. حينها ستقابلين البسطامي وستسألينه عن المريد الذي لا يهدأ وسيجيبك: "صاحبي مقيم ليس بمسافر وأنا معه مقيم لا أسافر." وستقابلين حفيدي المتصوّف الذي لم يولد بعد. تُقابلينه في لا مكان ولازمان..

– ومن قال إنّنا لا نلتقي وقد تخلّصنا من الزّمن/الحدّ؟ انظر إلينا الآن ولك أن تُنشئ انطلاقا منّا عالمك. الشّرط هو أن تتحرّر من كلّ قيد: كلّ ما يسكنك ويختبر أفكارك وكلامك قبل تشكّلهما. تخلّص منه ثمّ لك أن تتخلّص من الزّمان والمكان ولا تنس أن تتخلّص من الوجوه ثمّ لنا أن نحلّق بعيدا..

– ولأرواحنا أن تختلط مثل الزّيت بالزّيت شرط أن تكون الكثافة نفسها.. معادلة صعبة لكنّها ممكنة، مسألة وقت.

يسود صمت فيضيف:

– إلغاءِ الوقت يحتاج إلى وقتٍ هو الآخر.

– متى كان المُريد صادقا نسي التردّد والتلفّت وكانت المجاهدَة: مجاهدة الحدّ والفكرة ومفارقة الأصل والفرع و...

التفتت نحوه، سكنت عيناها ملامح وجهه ثمّ قالت:

– لتكنْ مريدا ولي أن أنفخ في الهواء روحا جاهدت ذات زمن فتشكّل لها المطلق ومُدّت لها خيوط برّاقة تتلألأ كلّما وجدت لها نصيرا تحلّ فيه وتمنحه استثنائيّة لا تفنى..

– سأفعل مثل سليمان دغش "أنزع جسدي.. لتركض روحي عارية..."

– الرّوح أصل الدّفء فإذا كنتَ تخاف البرد فلا تبتئس. الآخرون يعشقون الأجساد لأنّها تستر عورة الرّوح الخاوية. أرواحنا لا ترتضي الحدّ تذكّر دائما.. ثمّ إنّ الروح العارية

تتلبّس روحا تزيدها إطلاقا وهذا كافٍ تماما كأنّه الارتداد إلى لحظة الخلق الأسطوريّة الأولى..

– أشعر بأنّ الأرض تفقد جاذبيّتها. سأهوي إلى السّماء.

– افتح روحك قبل أن تهوي واترك الشّراع حرّا، لا تحاول تغيير وجهته ولا حتّى تعديلها. اتبعه فقد بدأتَ تقترب. لا تنس، لا تُغمض عينيك، اسعد بلحظة المكاشفة الأولى. إنّها الفتح الذي لا يتكرّر والبلوغ الذي لا ردّة فيه، مستعدّ أنت؟

– فقط خائف.

– ممّ تراك تخاف، روحي تُصاحبك.

– لو عرفته ما خفته.

– لو لم تعرفه ما تعلّقت به، هذا هو الأصوَب. الرّوح لا تخاف لأنّ الخوف حدّ. ألم نتّفق على الخلاص من الحدّ؟ لا تُفكّر فقط تُق.

– إنّها مرحلة.

– ماذا لو جعلتها فكرة لا مرحلة؟

– هي فكرة تسكن المرحلة.

– لا، للمرحلة حدّان: الفكرة والزّمن أمّا الفكرة فلها حدّ واحد هو ما يسمّونه عقلا أو لنقل جملة ما عُلّمناه بقناعات جماعيّة.

– سأصير يوما ما أريد، هكذا يقول درويش.

– أعجبني يقين التحقّق في المستقبل القريب، يقين منح الرّوح قوّة الرّحيل.

– أتصدّقين، أشعر برغبة في الطّيران. سأسكن تلك السّحابة...إنّها تشبهك.

– وإنّها تنتظرك الآن.

فجأة ينتصب واقفا. تشعر أنّ قامته قد زادت امتدادا مع هذا مازالت ملامحه قريبة تسكن عينيها.

– آه، نسيت، احذر أن ينقطع الخيط ويغيب العالم..

التفت نحوها بعينين خجلتين ونظرة عاشق جاهد زمنا ليعترف بعشقه:

– هل تصدّقيني إن قلت إنّني وجدت جسرا إليه؟ أعرف الطّريق الآن..

– كيف لا، ألا تعلم أنّ ما يسكنك بالضّرورة يسكنني؟

يسعدها أن يرفرف جناحاه وأن تنثره حروفا تتملّكها لكنّها تعجز عن قولها. إنّها تكتب روحا لا تني ولا تنكسر. تقف على أعلى الجبل. تمدّ يدها. تُعيد تشكيل السّحب فتجعلها واحدة. إنّها تمنحه المطلق علّه يدرك نشوة التّسليم طواعية...

ثلاثة حروف.

لون أزرق وغيمات.. هكذا تتبدّى السّماء لهذا الطّفل الذي لا يكبر أبدا، لهذا القلب النّابض كقلب عصفور. كان يرى زرقتها وبياضها وإن أظلم الكون بل لعلّها كانت أشدّ زرقة وأنصع بياضا متى حلّ اللّيل.. حينها فقط له أن يحلم، له أن يمتلك الأشياء، أن يُدير أصابعه في الهواء كالسّاحرات ودون أن يتمتم يكتسي العالمُ حلّة جديدة ويرتدي هو برنس أمير الأمنيات..

ينتقي من النّجوم ما توهّج ويُشكّل اسما أجمل من الرّسوم المتحرّكة ومن المواليد جميعا. كان يعشق الأسماء ثلاثيّة الحروف دون أن يدرك للرّقم (3) دلالة.. كم كان ممتعا انتقاء ثلاثة حروف، فقط ثلاثة تُعيد تشكيل المعنى ثمّ ينفخ فيها روحَ الحلم فتشدو له وترقص على إيقاع عينيه واتّقاد قلب العصفور.

لم يَعْنِ له كلام والده عن "قلب الأسد " شيئا بل ربما زاده تقزّزا منه لأنّه لم ير فيه غير مَجمَع دماءِ الغزلان..

لا يمكنه أن ينسى يوم دعاه إلى مشاهدة رحلة الموت والحياة بين الأسد والغزالة. كانت الخطوات تتّسع والأنفاس تتلاحق، سكنه قلبُ الغزالة فتمزّق قفصه الصّدريّ حين اجتاحته رغبةُ الأسدِ المحمومةُ ودوّى

في أذنيه نَفَسٌ سريع كالنّار. أغمض عينيه ووَدّ ألاّ يسمع والدَه وهو يحدّثه عن قانون الغاب وسباق المكائد. قلب العصفور يكفيه، لا حاجة إلى قلب الأسد. السّماء تكفيه والأرض ليست إلاّ قبرا وهو لا يحبّ أن يموت.. ماذا لو كان بإمكانه أن يُقنع والده أنّ الحقيقة كامنة في لون السّماء الأزرق والغيمات وأنّ قلب العصفور أوسع من المساحات..

كان له عالم اختزله في لونٍ ورقمٍ وحلمٍ.. فاتنة الأسماء ثلاثيّة الحروف وتزداد فتنة إذا ما داخلتها حركة طويلة تمنحها اتّساع السّماء وإيقاع أناشيد الطّفولة ويقين النّصوص المقدّسة. وتعوّد أن يعشق من النّاس أسماءَهم وأن يبحث عن الجمال الكامن في الحروف تنساب مرتِّلة بعض السّماء وبعض الحلم وكثيرا من الفرح.. هذه أيضا ثلاثيّة دون "سكون" يقطع انسيابها فيستدعي الموت وتلبّد السّماء وإمكان اللّون الأسود. يعلم جيّدا. منذ أن كان طفلا. أنّه يحتاج إلى جهد الأنبياء ليصوغ العالم على إيقاع ثلاثة حروف وليُثبت أنّ الجمال بعض شكلها وأنّ قلب العصفور أكبر من الأرض وأنّ نبض قلبه أجمل من دقّ الطّبول وهزّ خصور الغانيات..

نما الجسد واندكّ العالم من حوله ولم تكبر الأمنيات.. كانت أكبر من الكون. كانت قلبَ عصفور ولم يكن الكون قادرا على احتوائها، لا أسماء تختزلها دون أن تشوّه المعنى ولا مكان يحويها دون أن يقتل أنفاسها أو حتّى يبطئها ولا زمن يدرك فتنتها غير زمن الأساطير وحكايا الآلهة. ودّ أن يُسكنها وجهَ أمّه لكنّه خشي أن تئدها التّجاعيد فوجه أمّه ككلّ الأمّهات ينتهي بالاستسلام إلى الجدب في نهاية معركته مع الجمال. يعلم بقلبِ العصفور الذي يسكنه أنّها سيّدة النّساء لكنّه يعلم أيضا أنّ السيّدة وإن كانت كالملها فَلَهَا قلب أسد.. قلب الأسد لا يرتضي الوقوف في الشّرفات ليعدّ النّجوم ويشكّل من الغيمات أحلاما بلونٍ زهريّ فاتن لا يذبل ولا تجفّ حناياه. قلب الأسد لا يرتضي أن يدقّ خارج إيقاع سباق الحياة.. قلب الأسد يرى في مخالبه سلاحا يضمن له الاستمرار.. قلب الأسد قُدّر له أن يتبع خطواته فلا يهدأ ولا يجد متّسعا من الوقت ليدرك أنّه حتّى ينال من الغزال عليه أن يطأ العشب الأخضر وأن يُلوّث الهواءَ بنَفَسٍ لاهِث وراءَ الموت..

حين ينام قلب الأسد ويرتدي الكونُ السّماءَ والنّجومَ والغيومَ تستفيق الأرضُ على إيقاع قلب العصفور، حينها يُدرك هذا الطّفل

الذي لا يكبر أبدا أنّ نبضا ما قد سكن ثلاثة حروف أخرى بحركة طويلة تتخلّلها وأنّ سفَرًا يدعوه إليه ليستعيد ملامحه...

حلم وفقد.

حلم وفقْد..

هكذا بدت لك الأشياء، هكذا بدت لك الحياة.. يقولون إنّنا وُلدنا لنحيا لكنّك اكتفيت بأن تكتشف أنّ الوجود ليس خيارا وأنّ الحياة قد تُسلب منك ذات لحظة وأنت تبكي أو تبتسم أو تصرخ أو حتّى تنام. سيّان، ما يختلف هو تفكير سالبها وإمكان التّبرير. المهمّ: تنتهي مسلوبا لا سالبا ثمّ يعلّمونك أنّه "يا بخت من بات مظلومْ".

فتستكين إلى الظّلم المسلّط عليك أملا في أن يُعلن إنسانيّتك/طيبتك فيعترف الآخر بك أو يمنحك إمكان الدّعاء المستجاب. الغريب هو أنّك متى خرجت على النّاس أو إليهم- فكلاهما واحد- لم تجد للمسلوبين وجها.. الكلّ ظالم متجبّر لكنّه مع ذلك لا ينسى أن يُذكّرك أنّه على حقّ، فقط أنت من لا يرقى إلى مرتبة الإدراك الكليّ أو حتّى مجرّد القدرة على التّعايش.

باطلة هذه الحرب التي تخوضها أو عبثيّة!

هو باطل أو عبثيّ وإن كان الباطل إقرارا بالذّنب والعقاب معا فإنّ العبثيّة إقرار باللا جدوى ولأنّك تخاف الباطل تسكن العبثيّة وتوغل في الانتماء حتّى ترتضيها هويّةً ويصبح كلّ شيء عبثيّا.

عبثيّا؟ كأنّك تواجه الكلمة للمرّة الأولى فتكتشف أنّ طفولةً ما تسكنها: عبث الأطفال، قد يكرهه الأهل لكنّه يمتعهم وكثيرا ما يتحوّل إلى حكاياتهم المفضّلة.

ماذا لو بقيت طفلا؟ ليكن.. لكن لا سلطة لك على جسدك، على ملامح وجهك وهي تعلن رغبتها في الكمال ثمّ فجأة تلعن كلّ مظاهر الوهن والقبح.

مرّة أخرى تتمنّى القدرةَ ولا تطالها.. تنتهي مغلوبا فتتغشّى السنّ وتخبّئ طفولتك، تنتظر أن تفاجئك في ابتسامة، في كلمة، في لمسة يد، في خربشات تخطّها كيفما اتّفق على الورق وكلّما عزّ لقاؤها تضخّم الحلم حتّى يتلاشى لأنّه أكبر من الحياة، من الوجود، أكبر منك ومنه ومن كلّ شروط الواقع ومن أولئك الذين لا يحيون خارج سطوة الألسنة والأفكار والأحذية القذرة.

تعشق طفولتك، تخبّئها كقطعة حلوى أُهدِيتها يوم العيد وأنت تعلم أنْ لا عيد يأتي ثانية. تخبّئها وأنت تحلم بمن سيتقاسمها معك لتحيا عيدا لا يحتفل به غيركما ويتضخّم الحلم.. تبحث عن وجهك، تنتقي له أورف الظّلال وأخصب الحقول حتّى متى التقيته دعوته إلى تلك الشّجرة وحفرت اسميكما تحدّيا لشيخوختك التي ستستفيق ذات يوم كالمارد، تُمزّق مخالبُها طفولتَك وتسرقها ثمّ تقهقه عاليا لتذكّرك بأنّه لا خيار لك و"يا بخت من بات مظلوم."

تهرب إلى الرّسوم المتحرّكة، إلى أغاني الأطفال بها تستردّ بعض الحياة، بعض القدرة على الاستمرار، على الحلم. تستجدي ذاكرتك المثقوبة. تبكي على عتباتها، تحرقك دموعك والذّكرى لا تأتي.. إلاهي كم هي كثيرة طيّاتي! كم هي عصيّة طرق العودة إلى الدّيار زمن يُفقد الوطن والأهل، زمن تَفقد الكلمات جوهرها فتقول غير الذي تحسّ، تتخفّى وراء جدران ما يُشبه الكلام لأنّك تخشى مواجهة نفسك. تُكنّي ولا تُصرّح حتّى لا تُعاقَب وترتضي لنفسك سجنا أنت سجّانه فقط لتُرضي الآخرين..

ها قد سكنك الوهن قبل الشّيخوخة، قبل الموت، قبل الفقد. لِتكتفِ بالحلم، الطفولة لا تعود وإن تلبّستَ قناعا والحلم عبث لا يستعيدها فلِم تحلم أصلا؟ أتُراك تكتفي بالفقد؟

يضطرب قلبك، يرجوك، يتوسّل إليك ألاّ تحرمه الحلم. تضحك طويلا: "كم هو ممتع أن تكون جبّارا وأن يردّد الآخرون (يا بخت مِن بات مظلوم.)". لكنّ قلبك لا يُردّدها، ينظر إليك، تنكّس رأسك فيقول:

– الظّالم جبان لا يحيا خارج التّيه، خارج الفقد. سأحلم كما أشاء ولن أكون إلّا طفلا لي قطعة الحلوى والشجرة الوارفة ولك القيد والقبر.. هذه هي الحياة...

ســـؤال.

"بعض الأسئلة نطرحها لنموت. لا تسألي فقد تموتين ويستمرّ الآخرون. لا تسألي وإن سكنك هاجس الجواب. لا تسألي وإن توهّمتِ أنّك على حافّة بلوغ الجوهر..."

تعلّقت بها عينا هذا الغريب الملقى على حافّة الطّريق. ظلّ فاغرا فاه وظلّت تنظر إليه. من تراه يكون؟ ودّت أن تسأله لكنّها عدلت عن الأمر. منذ حين قال إنّه عليها ألاّ تسأل. مدهش هذا اللّقاء وغريبة هذه الطّاعة العمياء!

كانت متوجّهة إلى "اللّا أين" حيث تحطّ الرّحال لساعات قصيرة جدّا وتتشرّب روحا تناسب زمنهم لتستمرّ الخطى. حاولت كثيرا الفهم. كلّ ما تأكّدت منه هو أنّ روحا من زمن غير زمنها تسكنها وهي ذاتها التّي ترحل إليها وتمنحها هذا النّفَس التّوافقيّ لتتكلّم مثلهم وتنام مثلهم وربّما تحلم بما يحلمون وترى الأشياء كما يرون.

تعوّدت أن تمتطي صهوة الجواد. ينتابها شعور يُقارب اليقين أنّها تطأ كلّ الأرض بحوافره وأنّها تفتح باب زمن مازال مقفلا، زمن لا يعترف بغير هؤلاء الذين تسكنهم روح أعظم من الأجساد. تُحشر فيه حشرا فتُطوى مرغمة لكنّها سرعان ما تتمدّد وهي تتثاءب وتتهيّأ للاستفاقة.

تستيقظ مبتسمة، تغنّي: "يا نسيم الرّيح... روحه روحي وروحي روحه إن يشأ شئت وإن شئت يشأ..." فجأة ينتفض داخلها هذا المارد وتُسلّم أنّها على حافّة إعصار اليوم. تبتسم للجميع وهي تعلم أنّهم قد لا يردّون هذا إن لم يتساءلوا عن سبب ابتسامتها لهم. هي تعلم أنّ بعض الأسئلة قاتلة لذلك لا تفكّر في الأمر. تبتسم خطاها أيضا فتحبّها الأرض وتودّ أن تحملها أبدا فلا تنام.

تدخل مكتبها. تحيّي الجميع مبتسمة. يرمقها أحدهم ويُتمتم:

– أستغفر الله...

تقترب منه حتّى تكاد تلامسه. يتجمّد جسده وتضطرب ملامحه. تعلم جيّدا أنّه ممّن يُفقدهم اختراق الآخر لهم توازنهم الكاذب فما باله إن كانت أنثى.

– أهكذا علّموك؟ أحيّيك فتستغفر؟ أتستغفر لي أم لأذنك التّي سمعت صوتي أو لعينك التّي...

– عودي إلى مكتبك! ابتعدي عنّي! لست مستعدّا للكلام معك!

كانت لهجته صارمة لكنّها لم تمنعها من الكلام. اليوم لن يمنعها أحد. اليوم كتلك الأيّام التي تستفيق فيها محمّلة بجنون قلب عاشق لا يطال اللقاء..

– أوكي، مع هذا لست مضطرّا لردّ التحيّة وإن بطلب الاستغفار. على فكرة: غفر الله لك هههههه.

عادت إلى مكتبها. كانت للمكان روح مشعّة بشذى نجمة الصّباح. أخذت قلما وكتبت شيئا تأمّلته مليّا ثمّ جالت ببصرها تتخيّر له مكان تلصقه. كان عليها أن تضعه في المكان المناسب. هكذا هي أحيانا، تكتب كلاما لا يعني للآخرين شيئا مع هذا تودّ أن تحفره على كلّ الجدران. ثمّ خيّرت أن تلصقه على قفا جهاز الكمبيوتر.

"كُفّ عن احتلالي فقد صِرت تسكن أناملي وهي تُلامس الأشياء..."

فاتنة هذه النّقاط الثّلاث المتتالية. تُلحقها بالكلام كلّما سكنها حلم واسع كالبحر فتشتاق أكثر إلى شيء ما، إلى وجه يسكنها. هو أيضا يشتاق إليها، تعلم هذا جيّدا كلّما دقّ العصفور بمنقاره بلّور نافذتها. تفتح له وتمرّر أناملها على ريشه الجميل فتشعّ عيناه ويزداد

الكون تغريدا.. تغلق النّافذة ثمّ وبعجَلة من يخاف أن يفوته العمر تعيد فتحها. تخاطبه:

– لا أدري لِمَ نسيتُ أن أقول: اشتقت إليك؟ لعلّي عوّلتُ على قلبك في إدراكها أو على نفَسي في تبليغها..

تتخيّر لنفسها قبل أن تبدأ العمل قطعة موسيقيّة. هي تعشق الحياة أكثر متى تشكّلت إيقاعا. خيّرت أن لا تُفسد على نفسها متعة هذا العالم الذي لا يعانق غير روحها المجنونة فوضعت السمّاعة. صار جسدُها يتحرّك وأصابعها تتبع الإيقاع وهي تدقّ على لوحة المفاتيح تُنهي عملها. تكتسب الأرقام والحروف حُللا ملوّنة تجعلها مقبلةً على الحياة.

مرّ مديرها من أمام مكتبها. وقف يتأمّلها وهي تعمل. غبطها على جنون أصابعها وكلّ جسدها. ابتسم. لم يشأ التطفّل عليها. إنّه يعشق هذه الحالة التّي تسكنها. يكفيه أنّها تقدّم عملا استثنائيّا لا تبلغه حتّى هي متى كانت تشبه كلّ النّاس. قرأ ما كتبت. ووشوش له عنها:

– مجنونة، كم هو محظوظ!

لا أحد يعلم عن هذا الذي تكتب له شيئا. تتحدّث كثيرا عن الحبّ، عن الوجد، عن الشّوق، عن الحياة، عن متعتها متى أحببنا، عن نبض يشبه الطّوفان فيطهّر الأرض ويبعث إلى السّماء من جديد. يُفتنُ الرّجالُ فيروزها حلما مشتهى وتغار منها النّساء غيرة متلحّفة بسخرية واتّهام بالغباء والرومنسيّة الكاذبة. مع هذا ما زالت تحمل شوقها وزهرة ياسمين لا تذوي أبدا..

ودّ أن يدقّ بأنامله على مكتبها علّها تنتبه إلى وجوده. ودّ أن يلتقي قلبُه ذاك البريقَ الذي يسكن عينيها علّه يستعيد بعض هذه الحياة التّي تتحدّث عنها ولم يبلغها يوما رغم خبرته الطّويلة. لم يشأ أن ينتبه الآخرون إليه. يعلم أنّهم يعشق الحكايا وأنّه عليه أن يكون مديرهم.

سكنتها الأغنية فصارت تدندن معها ثمّ علا صوتها.. الآن هي سيّدة الكون. لا شيء يحيا خارج قانونها وإيقاعها. لا أحد على الأرض غيرها وهذا الذي يهتزّ جسده – في مكان ما– على ذات الإيقاع. يعلو الإيقاع فتشعر أنّه صار أقرب وأنّه قد يتجسّد في أيّ حين بلمسة حرف. صارت أصابعها تدقّ بسرعة مجنونة. ّإنّه نَهَم الشّوق!

تأفّف مرّات بينما اكتفى الباقون بالنّظر إليها نظرة خاطفة لا يثنّونها أو بابتسامة مسروقة. لم يشأ أن يوجّه إليها الخطاب. خيّر أن يشكوها إلى المدير. سُعد كثيرا وهو يتوجّه نحوها معه. وقف أمامها. لم ترفع بصرها. كان جسدها يرقص على إيقاع يختزل الحياة في أبدع أشكالها. خجل منه، من إيقاعها. التفت نحوه. ودّ أن يطرده لكنّه تمالك نفسه. هزّ كتفيه وقال:

– إنّها تعمل. ما الذي يزعجك؟

لم يعجبه ما سمع ودّ لو ضربها بالحاسوب على رأسها علّها تعود إلى قانون الحياة فتشبههم.

– لا أحبّ أن أسمع الغناء. يزعجني. أ لا يمكنها أن تعمل مثلنا؟

ابتسم المدير:

– مثلكم؟ طبعا لا، هي أصلا لا تشبهكم.

غادر المدير وبقي هو متسمّرا في مكانه. عليه أن يجد لها حلاًّ. عليه أن يتخلّص من وجودها. ناداها. رفع صوته. ضرب بيده المكتب لكنّها

لم تنتبه إليه. كانت قد سكنت عالما آخر وانتهى الأمر. لن تحطّ الرّحال الآن وإن فعلت فستنزل إلى الأرض بروح عرجاء سرعان ما ستتعثّر وتسقط. لم يجد لنفسه حلاًّ غير رمي بعض الأوراق على لوحة المفاتيح أمامها. ابتسمت له ثمّ واصلت الرّقن دون أن تبعدها. لاحظ أنّها ازدادت انتشاء.

– أ لا تعلم أنّه يمكنني أن أكتب وإن مغمضة العينين؟

– لا يعنيني أمرك، كفّي فقط عن احتلالنا بموسيقاك وجنونك.

توقّفت يداها عن الحركة فجأة. تخلّت عن السّماعتين.

– ماذا قلت؟ أعد رجاء! هيه كأنّ عدوى ما كتبتُ قد انتقلت إليك.

اضطرب واكتشف أنّ ما قاله يشبه ما كتبت. إنّه بالكاد قرأه مرّة فكيف علق بذهنه وفضحه في كلامه؟ كالسّاحرات هي.. ظلّ ينظر إليها وأحسّ أنّه عاجز عن الردّ.

– لا تقل لي أصابك مسّ جنوني؟

ردّ بسرعة كأنّه يلفظ الكلام علّه يتخلّص منها.

– إن كنت مجنونا فما عساك تكونين؟

– ربّة الجنون، هكذا بكلّ بساطة وأنت الآن في حضرتي فخفف عليك منّي.

– أستغفر الله، ربّة؟

– ماذا؟ لا أدري لِمَ يسكن الاستغفار لسانك كلّما خاطبتني ثمّ ألا تعلم أنّ لغتك تمنحنا مزيّة حضور لا تُضاهى؟ أليس الربّ هو السيّد؟ ألست ربّ المنزل؟ لا تقل لي إنّك لا تعلم هذا المنح اللّغوي؟ تخيّل نفسك وأنت تدخل بيتك مسكونا بكونك ربّ البيت؟

ظلّ صامتا وظلّت تبتسم وهي تنظر إلى عينيه فتكتشف لونهما للمرّة الأولى. كان لونا غبيّا جدّا لا تعرفه.. استغفر مرّة أخرى وحوقل.

– أنا أيضا أستغفر ربّي كلّما دعوته أن يُديم جنوني. متّفقان نحن إذن، ها أنّني أشبهك في شيء ما.

عادت إليها، إلى إيقاع موسيقاها وحروفها وأرقامها. كان المدير يراقب مبتسما. يسعده دائما أن تنتصر. يشعر أنّه يَسرق زمنا آخر

كلّما فعلت وأنّه يظلّ مسكونا بثقل لا يعرف له اسما كلّما دخلت المكتب متثاقلة الخطى أو حيّته بكلمة ونظرة كسولتين.

فجأة كفّت عن الحركة. تأمّلت سطح المكتب ثمّ بسرعة جمعت أشياءها. لعن هو هذا الموظّف الغبيّ وغادرت هي مبتسمة بعد أن التفت نحوه وغمزت له وحيّته بحركة خفيفة من أصابع مشبعة بالإيقاع.

يحبّ أن يتأمّل خطاها كما لو كان يتعلّم الخطو معها. يودّ أن تُخبّئه بين طيّات معطفها أو أن يتسلّل إلى أناملها فيلتقي هذا الذي يتمنّى لقاءه، هذا الذي اختاره الله ووعده بها.

شعرت أنّ عليها أن تلتقيه اليوم. آن لها أن تتسمّر أمامه فتحجب عنه شمسا تغيب وبدرا يأفل وسماء تَسرق نجومَها ظلمةٌ كالقبر. ظلّت تمشي على إيقاع سكن أذنيها وظلّ الوجه يقترب. إنّها تراه. إنّه هناك، بإمكانها أن تشير إليه فتعيّنه وليكون هنا عليها أن تواصل المشي. الطّريق الخالية لا تُخيفها فما يسكنها أكبر من قانونِ شعورٍ يُحدّ فيُسمّى.

ظلّت تسير نحوه حتّى بلَغته. لم يفاجئها حضوره. الصّوت الذي يسكنها لا يكذب أبدا. كان واقفا على حافّة الطّريق. ابتسم لها. أدرك أنّها مقبلة على السّؤال.

– لا تفعلي. بعض الأسئلة نطرحها لنموت!

وواصل كلاما سمعته ذات زمن... أغمضت عينيها وشعرت أنّها إن تمدّ يدها تبعثه إلى الحياة من جديد ذاك الذي التقته ملقى على حافّة الطريق. عدلت عن الفكرة. كانت مشدودة إلى هذا الوجه الذي لم تره قبلا لكنّه يشبهها، يشبهها جدّا. وسكنها السّؤال عنه، عن إيقاع الكمال وعن جنون المطلق متى بلغته وعن إمكان الصّعود لتعود إلى ذاك الزّمن، زمنها، زمن روحها الأولى لكنّها خيّرت أن تبتسم وتواصل السّير على إيقاع خطى تحفظه فيكفيها أنّه صار هنا...

على موعد مع..

استيقظت فجأة، تذكّرت أنّها على موعد معه واستغربت كيف غفت عيناها. إنّها على موعد مع بداية جديدة، زمن جديد.. كيف لها أن تنسى؟ ما حاجتها إلى الذّاكرة إن تسلّل هذا الوعد باللقاء من ثقب لم تُعره يوما اهتمامها؟

تنظر في السّاعة، يفوح منها شذى انتظرته. كان عبقا جدّا، لعلّها لن تحتاج إلى عطر. اليوم سيُزهر فيها شيء ما، اليوم سيفوح من خطاها ريح من الجنّة، اليوم ستمطر السّماء موسيقى وستغنّي لها الأشجار نشيدا من الحلم. وقفت أمام المرآة، رأتها فاتنة حتّى خجلت من نفسها. أغمضت عينيها لمح بصر ثمّ فتحتهما وأرسلت إلى المرآة قبلة سريعة اختزلت كلّ حبّها لها.

فتحت الباب بهدوء، لا تريد أن ينتبه إليها من في الدّار فيسرقون بريقا يفضح عينيها. لو كان بإمكانها أن تبلغه مغمضة العينين لفعلت. إنّها كالأمّ تُخبّئ لابنها ما مُنحته لأنّه الأحقّ بالمتعة واكتشاف مذاق الأشياء..

احتضنت حقيبتها وحذاءها ومشت على أطراف أصابعها ورجت الأرض ألاّ ترتجّ تحت قدمين عاشقتين، مع ذلك ارتعشت ثمّ فقدت توازنها وسقطت، سقطت بوزن حلم ووعد وغيمات... لعنت نفسها وأيقنت أنّ بابا سيفتح وقد تُمنع من الخروج قبل أن تُسأل عن وجهتها فقط لأنّها بدت كالهاربة. أُنيرت الغرفة المجاورة وفُتح الباب بسرعة. وقف بلباس النّوم. فرك عينيه. هزّها الصّوت:

– أمّي؟ ماذا تفعلين في هذا الوقت المتأخّر من الليل؟ ثمّ ما هذا الذي تحملينه بين يديك؟ إلى أين أنت ذاهبة؟

ابتعدت عنه.. تعجّبت رسمت على وجهها كلّ علامات الغضب والاستغراب والعجز عن الفهم:

– أمّك؟ من؟ أنا؟ من أنت؟ ما الذي جاء بك إلى منزلنا ؟

ثمّ علا صوتها:

– أمّي ، أبي، في بيتنا رجل غريب...

ودّت أن ترميه بحذائها ثمّ تراجعت، خافت أن يردّ الفعل ويعتدي عليها وازداد خوفها لَمَّا لم يجبها والداها.. اقترب منها، مدّ نحوها يدا

واثقة. لم تدر ما تفعل فباب المنزل بعيد وغرفتها لن تحميها منه. هل تصرخ؟ هل تهرب إلى المطبخ وتحتمي بسكّين أم تستعدّ لل...؟

لم تستطع النّظر في عينيه أكثر، أبدا لم تواجهها نظرة كهذه.. لعنت اختلال التّوازن والتّحايل على الآباء لكنّها لم تفكّر في لعنه، هو سبب خروجها. فجأة عنّت لها فكرة: ستجد هدنة معه، ستترك له البيت وسيتركها تغادر. ترجّته أن يوافق لكنّه اقترب أكثر:

– أمّي، أين ستذهبين في هذا اللّيل؟

– لست أمّك؟ ألا ترى أنّك تكبرني سنّا؟ هل جننت؟

حاول أن يمسك يدها فارتبكت وانتفض كلّ جسدها. قال:

– ما رأيك، عندي اقتراح، حدّثيني عن وجهتك وأنا سأوصلك، من باب الحماية طبعا.

أسعدها الاقتراح لكنّها خجلت من مصارحته. قال:

– قولي، لا تخجلي، ألا تري أنّنا متقاربان في السنّ ثمّ أنا رجل غريب يعني لا سلطة لي عليك.

بدا لها كلامه مقنعا. طأطأت رأسها، لم تكن لها القدرة على أن تتحدّث ناظرة إليه. كانت خجولة ككلّ العاشقات. سرى الكلام على لسانها كالماء، صوّرت له لحظة اللقاء الأولى وزمن الاعتراف الأوّل وارتعاشة اليد الأولى وانقباض الحشا الأوّل..

فجأة صار أمين سرّها، فجأة صار صدى صوتها. جلس، لم تنتبه إلى دهشته ولا إلى تراخي يديه ولا إلى ملامح وجهه..كانت مأخوذة بعالم لها وحدها أنساها هذا الغريب. أخذ كفّها بين يديه. جثا أمامها على ركبتيه:

– ستخرجين للقائه بثياب المنزل؟ لم لا ندخل غرفتك وننتقي أحلى الثياب، أعلم أنّك حسناء لكنّك ستكونين أحلى.

استغربت ما قال. لقد تأملت نفسها في المرآة. إنّها في كامل أناقتها مع ذلك طاوعته ودخلت. قال:

– اجلسي على سريرك واسمحي لي أن أنتقي لك.. أنا أعلم منك بذوق الرّجال.

مدّ إليها فستانا بدا لها أجمل ممّا ارتدته. جلس بجانبها:

– أمّي، أعن أبي كنت تتحدّثين؟ أمّي، لقد غادر.. أنسيت أنّه قد رحل؟

تأمّل وجهها المجعّد ولعن السنّ والمرض وآفة النّسيان. كان كلامه كافيا ليجعلها أكثر شحوبا.. شيء ما انطفأ داخلها، شيء ما سرقه الزّمن، شيء ما كانت هي على موعد معه لكنّه تسلّل من ثقوب الذّاكرة...

هذا ليس لكَ.

"هذا ليس لك!"

هكذا كان يبدأ صباحه، بهذه الكلمات من شفتي أمّ بعينين منشغلتين ويدين تسابقان الزّمن ومع هذا ظلّت يده الصغيرة تمتدّ فلا هو "يتأدّب" ولا هي تكلّ. كان يمدّ يده كلّ صباح إلى مائدة الطّعام منتظرا أن تنسى هي جملتها أو يُسمح له بما ليس له.. وسكنه السّؤال: "متى سيكون له؟ متى سيكون شيء ما له؟ متى سيحلّ محلّ هذا الذي لا يقال له كلّ صباح: "**هذا ليس لك.**"؟

يغادر البيت فيرى الشّمس له وابتسامات النّاس له وضجيج السيارات له وصوت الآذان له وزقزقة العصافير له وهمس معلّمته يدغدغ أذنه له... يحفر في ذهنه الصّغير كلّ هذه ويحشرها حشرا إن لزم الأمر ثمّ يخبّئها في زاوية قصيّة من قلبه الصغير الدّافئ لتقيه برد جملة أمّه كلّ صباح.. وتعوّد أن يكون الكون له إلاّ ما على رأس الطاولة.. أمّا عند معلّمته فالأمر مختلف، كان هو الضّيف المبجّل مع ذلك لم يكن يمدّ يده إلاّ ليأخذ قلمه أو قطعة طباشير بها يرسم وجها لطيفا بابتسامة لا تشبه غير معلّمته..

يوم قدّمتْ له قطعة حلوى، خانته يده الصّغيرة ولم تمتدّ. حاول جاهدا أن يلبّي دعوة معلّمته لكنّها لم تمتدّ بل - ونكاية به - امتدّت لتختبئ وراء ظهره، يا لهذه اليد! تتعلّق عيناه بوجه صار يعشقه وتمتنع يدُه وهو الذي يرغب أن يمرّرها على وجه هذه الآنسة التي لا تشبه النّساء، لا تشبه الأمّهات. سارعت معلّمته بدسّها في جيب ميدعته وقبّلت خدّه فتساءل: "**هذه لي؟**"

ابتسمت ومرّرت يدها على شعره فأحسّ أنّه صار ماردا كما في القصص التي يطالعها كلّ مساء إرضاء لها. لأوّل مرّة يكون شيء ما له، لأوّل مرّة تزهر شفتاه الطّفلتان بابتسامة تشبه ابتسامة آنسته. لأوّل مرّة لا يتوهّم أنّ شيئا ما له لأنّه فعلا له..

ظلّ زمنا يمدّ يده كلّ صباح وأمُّه تكرّر جملتها بكلّ هدوء لتزداد ابتسامته إشراقا وليسكن وجهُ معلّمته عينيه وصوتُها أذنيه..

اليوم، قرّر أن يقول لها شيئا ما، **هو لها وحدها**...

مرّت ساعة الدرس بين صوتها وخطواتها وترقّب الجرس.. أسرع نحوها، ابتسم خجلا، انحنت قليلا:

– ما بك؟

سكنت جيبَ ميدعته حرارةُ ذلك اليوم القريب فمنحته شجاعة البوح:

– **"أحبّك آنستي... هذه الجملة لك."**

لا يدري لِمَ تسللّت الجملة الأخيرة لكنّه ظنّ أنّها هي ما أسعدها أكثر أو هكذا أيقن ودون خجل كرّرها:

– **هذه الجملة لك.**

ابتسمت أكثر، ابتسمت حقيقةً ثمّ وشوشته:

– **وأنا أيضا، هذه الجملة لك.**

الآن يمرّر يده على شعره وقد بدأ اللّون الأبيض يتسلّل إليه، يعيد الحركة أكثر من مرّة ثمّ يبتسم ساخرا ويتساءل: **"كم مرّة لم يكن ذاك الشيء لي؟"**

وأحبّ معلّمته أكثر لأنّها منحته شيئا له، له وحده أمّا هو فمنح نفسه ما لا تطاله الأيدي ولا الألسن، منحها عالما لا يعرف سرّه غيره ولا تُفتح أبوابه إلاّ له. عالم يشبه آنسته وقطعة الحلوى في جيبه، تلك التي مازال يحتفظ بها ويعود إليها كلّما أحسّ أنّ هذا العالم لا يشبهه وأنّ على يده ألّا تُمدَّ لأنّه لا شيء له..

كان يؤمن أنّه لا شيء لهم مع ذلك لم يمنع يدا مُدت. ظنّ نفسه عاجزا، طفلا ثمّ اكتشف –وقد سكنه ما قال يوما لمعلّمته– أنّه لا يريد أن يمدّ نحو عالم لا يشبهه يدا مازالت تحتفظ بحرارة جيب ميدعته وبقايا قطعة الطباشير وآثار قلم الحبر الأزرق..

دقّ بأنامله على حافّة الكرسي ثمّ أمسك قلما أزرق ورسم ابتسامة يعرفها ثمّ ألحقها بـ"**هذه لي...**"

القلم الأحمر: ابتسامة خبيثة

وقال لي في المخاطرة جزء من النجاة.

....

النفري.

"هي فكرة الموت وقد تجسّدت... وقع خطى ودقّ باب خفيف وخاتمة لا يحياها غيرك..."

كتبت هاتين الجملتين وأعادت قلمها الأحمر إلى موضعه بكلّ هدوء قبل أن يتعلّق بصرها بالسّماء المحجوبة بالسّقف. هي لا تعلم لم يحلو لها أن تكتب بالقلم الأحمر؟ ولم تُكلّف نفسها عناء البحث عن الإجابة. ستتركها لأهل علم النّفس الذين يشكّلون البشر وفق متلازمات لا يعلمها غيرهم حتّى يتوهّم الانسان أنّه يكتشف نفسه معهم وأنّه مفضوح إلى درجة أنّه قد يلبس كثيرا من الثياب علّها تساعده في حجب ما "يتنطّط" داخله.

من وراء السّقف تبدو السّماء أكثر إطلاقا، تُغمض عينيها وتستعيد تجربتها مع الموت...

" كم كانت مليئة بالحياة يومها ولأنّ الموت غادر ابتسم لها بخبث واتّجه نحوها بخطى مخاتلة. الحلم قد بدأ للتوّ وابتسامتها أرقّ من النّدى. وشوشت نفسها: "أنا هنا...". وسخر هو فردّ:

"بل كنتِ هنا" الموت غادر لذلك ننساه ولا نسمع صوته كلّما كان علينا أن نتذكّره وكأنّه ينتقم منّا يزورنا فجأة أو بعد أن نتوهّم التّعمير في الأرض.. لكنّها فكّرت فيه سابقا، زارها مرّات كثيرة قبل النّوم وزمن الخيبات إلاّ أنّه أبدا لم يطرق بابها، لم تعرف مذاقه، لم تمدّ نحوه يدا ولا حتّى بادلته الابتسام. كان عليها أن تصعد الجبل وكان عليه أن يكون صبورا فيسرق روحها حين تتوهّم الوصول. خطاها مليئة بالحياة ونبض قلبها يتسارع فتبتسم لها/ لنفسها أكثر وتؤمن حدّ الموت أنّها تستحقّ الحياة..."

لا تأتي الكلمات طيّعة. الحبر الأحمر لا يُجدي نفعا، لا يسرق الحروف ويُشعل نيران المعنى. كأنّه يتحالف مع الموت، كأنّه ينعى شيئا ما داخلها. قاتل هو اللون الأحمر ومدرارة دموع الحرف في ذاك اليوم.

"كانت خطاها أسرع ويداها أكثر تشبّثا بشيء ما لا تعرفه. ازداد النّبض، تسارع كأنّ القلب يتأهّب للانفجار. تزاحمت الصّور ثمّ تلاشى كلّ شيء.. كأنّ شيئا لم يكن. غريب هو الموت، غريب هو الموت حين يزورك يقظا. لا شيء غير فراغ لا لون له وألم

عميق لا يشبه غيره وروح تتهيّأ للصّعود.. نادته، لا تعلم لم؟ لعلّ هذا ما استطاعت فعله، لعلّها ودّت أن تسكن عينيها بقايا الحياة، تراخت ولم يعد شيء هنا، لا هو ولا غيره. كلّ ما تشعر به هو أنّها في مكان ما واسع، واسع جدّا وأنّه لا لون ينشدّ إليه البصر. هي الرّوح وقد تلاشت الحواس، هي رحلة أخرى غير التي بدأتها هذا الصّباح زمن كانت "حيّة".. غريبة هذه الرّاحة التّي سكنتها بعد الألم القاتل/ألم الموت.."

الآن وهي على مكتبها صارت أعلم بلعبة الموت، صارت لها روح مسافرة تُدرك ما لا يدركه الآخرون، ما يتحدّثون عنه ويصوّرونه لغزا.

"لا أحد بإمكانه أن يصف ما لم يعش وإن كان أقدر النّاس على نظم الكلام. التفاصيل لا تسكن الحروف، إنّها تسكن الرّوح، تسكن هذا الذي يختبئ داخلك لكنّك مع ذلك تحتمي به كلّما تراكمت الأفكار أو حتّى رغبتَ في الخلاص منكَ..."

تمتدّ يدها نحو قلمها. تتأمّل الورقة.. كأنّها تشبهها، كأنّها بعضها. الآن صار يؤلمها أن تخطّ عليها، صارت ترى القلم موتا مخاتلا واللون

الأحمر ابتسامة خبيثة لكنّها مع ذلك تحبّ القلم. كأنّه على الورقة أن تموت، عليها أن تموت لتدرك طعم الألم الذي لا يتكرّر أمّا هي فتعرفه، تعرفه جيّدا. ربّما لهذا كان بإمكانها أن ترى السّماء من وراء السّقف..

مَنحُ العَمَى.

– "فاجعةٌ صرخةُ من فقد البصر حديثا."

تناهى إلى مسمع العجوز صوت فتيّ حنون مكسور أدركت أنّه لجالسة بجانبها. لم تجد ما تقوله وبدت لها شكوى الألم تخريفا فما الذي تطمع في اكتشافه وقد بلغت من الكبر عتيّا. يكفيها الآن أن تتحسّس الأشياء وأن تستعيد وجوها ألفتها سبعين خريفا.

فجأة خيّم الصّمت. كأنّ هذا الشّاب الذي هزّ صوتُه العيادةَ وكلَّ توازن المبصرين الواهم قد سلّم بأمر واقعه الجديد أو لعلّه قد فارق الحياة. ودّت أن تطرق الباب وتسأل عنه، لعلّه قلب الأمّ أو هي مشاركة الألم تمنحنا بعض القوّة حين يخذلنا الزّمن ونركع لأنّنا لم نعد نقوى على الوقوف.

لم يكن الطبيب قادرا على تهدئته. ترك له مجال الصّراخ. قال في نفسه: "سينتهي الأمر بالهدوء، لا خيار له".

طأطأ الشاب رأسه كأنّه يتحاشى أن تلتقي عيناه المظلمتان عيني الطبيب.

– دكتور، قل لي صدقا وتأكّد أنّني قادر على مواجهة الموقف، ألن أبصر ثانية؟ وإن بعض النّور، بعض النور يكفيني ثمّ إنّه لا حاجة إلى تمام البصر فأشكال القبح كثيرة في الواقع. قل لي...

حاول الطبيب إيجاد إجابة سريعة:

– جيّد، ها أنّك بدأت تكتشف إيجابيّات الع... أقصد مرضك.

– لم تُجبني!

صمت بعض الوقت. لم يتهيّأ هذا الصّباح لبثّ الحياة في جسد ميّت. كلّ ما فكّر فيه هو كيف يكون طبيب عيون ناجحا. يحتاج الآن إلى كلّ إنسانيّته.

– أنتَ قل لي: كيف تشعر الآن؟

– أشعر أنّني... لا أدري، ربّما أنا الآن لا أشعر بشيء، لعلّ الحواسّ متعلّقة بالضّوء!

أسعده الردّ، بدا له منقِذا، ابتعد به عن حالته ليتحدّث عن العمى:

– هكذا ستختار أنت بما تحسّ وستلغي من قاموسك كلّ ما قد يزعجك.

ابتسم الشاب. بدا له الخطاب ضربا من المثالية الكاذبة:

– سأختار؟ وهل للأعمى أن يختار؟ هل له أن يختار بين أن تحرق النار أنامله أو يمرّرها على ملمس ناعم؟ هل له أن يختار بين السّقوط وهو يصعد الدرج أو بين الموت تحت عجلات السيارات؟ هل له أن ينتقي وجها يحبّه لأنّه يراه الأكثر حسنا أم له أن يتوهّم الحسن في صوت قد يكون مجرّد كذبة... أختار؟! ههههه

قال الطبيب مخاطبا نفسه:

– "غريب أمري، كم يوما قضيّت مع أمثاله وهذه هي المرّة الأولى التي أُسأل فيها هذه الأسئلة!"

مثل هذه الأسئلة لا تُدرّس، مثل هذه الأسئلة تشوّه وجها ثمّ تكتفي بمراقبته وهو يتأمّل ملامحه في المرآة. قال محاولا أن يلبس رداء طبيب نفساني:

– كثير ممّن فقد البصر تغلّب على مرضه وواصل حياته، هذه فرصة لتُظهر قوّتك وتكتشف عزيمتك.

– أعطني بصرك وخذ كلّ عزيمتي ولتواجه الحياة كيفما تشاء، ناصبها العداء بعصاك البيضاء وأعلن أنّك دونكيشوت عصرك وتذكّر دائما أنّه أمضى العمر محاربا ولم يكن يوما بطلا.

– لا أحتاج إلى مناصبة العداء.. بعض النّاس يُمضون العمر عميانا ولم يفقدوا يوما البصر، تمرّ الحياة مجانبة ولا يدركون لتفاصيلها وجها ثمّ سأسألك: من هم أكثر النّاس عمى؟ إممم، أجبني.. سأجيبك أنا: أكثرهم عمى أرفعهم منصبا، هل رأيت يوما حاكما أو وزيرا أو حتّى مدير شركة يدرك ما يحياه الآخرون؟

ردّ الشاب سريعا جدّا كأنّه قد تهيّأ للسؤال قبل أن يُطرح:

– أوّلا عليك أن تحذف الفعل "رأيت" ثمّ أنا لا أفكّر في أن أكون واحدا منهم هم لهم من يرى ما يريدون وينقل أيضا ما يودّون أن يسمعوا أمّا أنا فتتعثّر خطاي وقد تخذلني عصاي بل قد أصبح في لحظة واحدة أضحوكة أو هدف مقلب طفوليّ أو شرّير والأوجع أن أكون محلّ شفقة. أتعلم، أعجبتني حكاية الحكّام العمي هذه الذين نُطأطئ لهم الرؤوس لتدوسها أحذية بعضها قذر ونحدّث أنفسنا أنّنا نفعل هذا من أجل الوطن و"كلّو يهون في سبيله" وإلاّ كيف ترانا نُثبت أحقيّتنا به؟ جميل وطن العمى إذن.. جميل لأنّ لغته تُقرأ بالأصابع ولأنّ الأقدام فيه تطأ ما تشاء ولأنّ العصيّ البيضاء –التي قد تنتهي سوداء إذ لا أحد يميّز الألوان– قد صارت عضوا فاعلا في المجتمع ولعلّها ستعلن العصيان يوما وتُطالب بتخفيض ساعات العمل. ما رأيك؟ هل تريد أن تكون حاكما؟ بالنسبة إليّ مستعدّ أن أكون مجرّد مواطن فهبني بصرك. ممكن؟

لا يعلم لِمَ كلّما توهّم الخلاص من العمى ردّه إليه سريعا بل سريعا جدّا. أغمض عينيه وقرّر أن يعود إلى مكتبه أعمى. عوّل على أنّه يحفظ تفاصيل المكان لذلك لن يسقط وفي كلتا الحالتين لن ينتبه الشاب إلى التجربة فكيف تُراه يراه؟

نهض من على الكرسي، حاول أن يحافظ على ثبات الخطى. كانت يده تمتدّ أمامه تتحسّس الأشياء وتمنّى حينها لو كان أخطبوطا فيمدّ أصابعه في كلّ مكان. صُدم بحافّة المكتب. كانت الضربة موجعة ربّما لأنّه لم يتوقّعها أو لأنّها جعلته يشعر بالعمى. وصل إلى كرسيّه الوثير بعد دقائق بدت له دهرا هزّه فيها خوف وفزع وسكنته لعنة العمى.

تأمّل وجه المريض. كان ينظر إلى الأرض وأصابعه تدقّ على ركبته دقّا خفيفا متسارعا أدرك به أنّ ما يسكنه هو لعنة العمى.

— دكتور، أنت هنا؟

جاءه الصّوت مُرتعشا فتذكّر أنّ لعنة أخرى تسكن من فقد البصر. هي لعنة الخوف الدّائم الذي لا ينام ولا يتخفّى وراء الكلام فصوت

الأعمى أصدق من عينين بهما نختبر صدق الآخر وكذبه. صوت الأعمى ونبض قلبه لا يكذبان، كلّ ما هناك هو أنّهما مسكونان بالخوف من مجهول هو كظلّهما لا خلاص منه وإن اختفى عن كلّ أشكال النّور.

كرّر الشاب السّؤال بخوف أكبر فلعن الطبيب نفسه لأنّه زاد خوفه.

– طبعا أنا هنا، فقط كنت أكتب بعض الملاحظات عنك، أقصد عن حالتك.

– دكتور، قل لي هل يمكن أن أبصر ثانية وإن لوقت قصير؟

– وقت قصير؟

– هناك أشياء أريد أن أحفرها في ذاكرتي، أريد أن أحفر وجه أمّي وهي تقبّلني وهي تقدّم لي قهوة الصّباح وهي تحدّثني عنّي وعنها. أريد أن أحفر في ذاكرتي كلّ درجات الألوان وكلّ النّجوم وكلّ العصافير، أريد أن أحفر تفاصيل وجهي

وأنا أبتسم وأنا أتحدّث وحال استيقاظي من النوّم وعندما أبكي.. أتعلم، لم أفكّر في أن أراني وأنا أبكي، هل فعلت أنت يوما؟

– لا، لم أفعل ولم أفكّر يوما.

واصل الشاب خطابه كأنّه يحدّث نفسه:

– ترى كيف نكون ونحن نبكي؟ كيف سننظر إلينا بعين تملؤها الدّموع وهل ستكون دموعنا صادقة ونحن نراقبها؟

– ما كلّ هذا، يا فتى؟

– بل قل ما لعنة العمى هذه؟ أمن العدل أن يرحل البصر وقد نسيتَ أن تحفر في الذاكرة ما تحب؟

– سأقترح عليك شيئا: المرّة القادمة أريد أن تأتي وقد استحضرت كلّ ما حُفر في ذاكرتك.

– كلّ ما حُفر في ذاكرتي؟ إذن لن أبصر ثانية؟ لعلّه لم يُحفر في ذاكرتي شيء! لم أكن مستعدّا. العمى لعنة مفاجئة، ألا تعلم؟

تحسّس المكان مغادرا وهو يردّد: "العمى لعنة مفاجئة.". مُدّت له يد تساعده على المغادرة. كانت يدا رقيقة بصوت دافئ:

– "لا عليك، في العمى بعض المنح. قريبا تُدرك هذا."

لم يحتج إلى الالتفات نحو صاحبة الصّوت، بدأ لعبة التخيّل ورسم لها وجها كما شاء.

– هل تعيرينني بصرك اليوم؟ أريد أن أبصر لأدرك منح العمى!

لم ينتظر إجابة ولم يدر كيف وجد نفسه خارج العيادة.

ما أشدّ ضجيج الشّارع وما أعسر الحركة فيه! تناهت إلى مسمعه أصوات كثيرة وفرمل حركةَ جسده ارتطامُه بشيء ما لعلّه جسد أحد العابرين:

– "آشنية، حلّ عينيك، أعمى؟"

سكنت الكلمة رأسه حتّى فاق ضجيجها ضجيج الشّارع. أغمض عينيه بحركة لا دلالة لها وتمتم لاعنا هذا هو المنح "مَنح العمى"...

لا شيء ينام.

منذ كانت طفلة لم يكن النّوم يعني لها شيئا. تُدعى إليه مرّتين أو أكثر فتنساق مرغمة. تُغمض عينين يسكنهما بريق آسر وتهرب إلى الظّلام علّها تُرضي من حملها إلى فراشها.

تتناهى إلى مسمعها جملة لا ترى لها مبرّرا: "أخيرا نامت." هكذا تقول والدتها وإن مخاطبة نفسها. تتنفّس الصّعداء كلّما وضعتها في فراشها كأنّها بثقل هموم الدّنيا وخيبات الأمل في الحياة.

حاولت أن تكون مؤدّبة بل مؤدّبة جدّا مع ذلك مازالت أمّها على حالها، ترى نومها راحة وخلاصا. لم يكن يسعدها غير تمرير أمّها يدها على رأسها الصّغير، كانت تشعر به عميقا يدغدغ القلب ويمنحها جناحين لترفرف بعيدا.

ذات مرّة سألتها:

– أمّي، لم ينام النّاس؟

لم تفكّر كثيرا وأجابت:

– ليرتاحوا بعد يوم متعب وليبدأوا يوما جديدا.

– أنا لست متعبة مع ذلك أنام، أنام مرّتين!

ابتسمت الأمّ:

– الحسناوات أمثالك ينمن ليحلمن.

– يحلمن؟ كيف يحلم النّاس، أمّي؟

– يغمضون أعينهم ويرون عالما جميلا، جميلا جدّا ويستفيقون مبتسمين..

أعجبتها لعبة الحلم والابتسام فعشقت إغماض عينيها ثمّ كان أن أدمنتها. كان إغماض عينيها يستهويها أكثر من كلّ شيء. بدا كالسّحر به تلغي ما تشاء وترحل حيث تشاء وكلّما زاد الواقع قبحا اتّسع الحلم وأُطلق الزّمن حتّى قارب الأساطير وبدايات الخلق. لم تكن تحتاج إلى الخدر لتنام، كان يكفيها أن تغمض عينيها.

مازالت إلى الآن تهرب إلى فراشها مرّتين يوميّا. تعشق رائحة الحلم ودفء عالم أسواره عالية لا يطالها غيرها، بمجرّد إغماض عينيها. تشعر أنّه حليفها يخبّئ لها حكايا لا تنتهي ويحتضن جسدا كلّ ما فيه ينبض.

لا أحد يعلم سرّها غيره، لا أحد يعلم أنّها لم تنم منذ زمن بعيد وأنّها تكتفي بإغماض عينيها لتستدعي الحلم وأنّها تشرب قهوتها على مهل رغبة في استعادته لا أكثر وأنّها تستفيق على حلمها يُمرّر أنامله على خدّها ثمّ يضع يده على قلبها، ينصت إلى نبضه وينظر في عينيها فيرى نفسه: يرى الحلم وقد سكنهما.

لا شيء ينام فيها ولا شيء تتلاشى ملامحه، كلّ ما هناك هو أنّها تخبّئ عالما حالما بشيء ما يتوهّم الآخرون تلاشيه كلّما أشرقت الشّمس لتفاجئ هي حبّاتِ النّدى أنّه مازال هنا.

كانت تشتاق كلّ يوم أكثر وكلّما اشتاقت هزّها حلم واسع كالبحر. حلم مدّه وجزره رفّ جفنها. الآن تتساءل:

– "هل تراها أمّي تدرك ما فعلت بي؟ بل أيّ منح أهدتني؟ لو لم يكن لي منها غير هذا لأعلنتُ للكون أنّها بدري الذي لا ينتظر اكتمال القمر..."

عشقت فراشها وعشقت ألوان حلمها. لم تكن تغادر منزلها قبل أن تقبّل عيناها هذا الذي يمنحها الكون صلصالا تُشكّله كيف تشاء ثمّ

يتواطأ معها فيُعيد بأصابع السّاحرات كلّ شيء إلى مكانه فيبقى الحلم أبديّا ويتوهّم الكون التّوازن ورتابة الخطى. تغمز له فتبتسم الملاءة وتحمرّ وجنتا الوسادة. تغلق باب غرفتها وتغادر محمّلة بموجة هادئة وسنونوة تسكن كتفها ووردة تزهر بين أناملها كلّما ارتفعت يدها ولامست شعرها.

تعرف جيّدا ألاّ أحد سيبلغ ما بلغت وأنّ النّاس ينامون ليرتاحوا وأنّ على الأرض جنّة لا يعرفونها وأنّ الفراش أكبر من الكسل ومن لعبة الأجساد.

لا شيء ينام، هي فقط من يعرف سرّ الكون. لا شيء ينام، هي فقط من تشارك الكون إعادة تشكّله كلّ ليلة. لا شيء ينام، هي فقط من يجمع برقّة جفن أرضا وسماء. لا شيء ينام، هي فقط من يسمع وقع خطى النجوم وهمس الشّمس ليلا من وراء حجاب. لا شيء ينام رغم تنفّس الأمّهات الصعداء ورغم الملاءات والحشايا. لا شيء ينام لأنّها أدمنت الحلم ولأنّ أمّها قالت لها ذات زمن بعيد ربّما:

– "الحسناوات أمثالك ينمن ليحلمن."

ولأنّها حسناء كانت تحلم ثمّ صارت حسناء لأنّها تحلم وحتّى ينتهي الحلم برفّة جفن لا يُفتح بعدها ستبقى حسناء لأنّها تحلم وسيقبّل موج المحيطات قدميها كلّ يوم وهي تنزلهما من فراش دافئ كرحم أمّها...

أنا هـــــنا.

– أنا هنا.

ردّت التلميذة الصّغيرة وهي تنظر إلى معلّمتها مبتسمة.

– قولي حاضرة ككلّ زملائك. ما هذا الغرور الذي يسكنك منذ الصّغر؟

ثمّ أضافت بصوت منخفض اخترق سمعها وجعل عينيها كسيرتين:

– كلّ هذا ولست حسناء.. ستر ربّي.

شعرت أنّه عليها أن تخبّئ وجهها بيديها. ودّت أن تكونا أكبر قليلا فلا تتركان منفذا منه يبصر الآخرون قبحها. أعطتهم المعلّمة قائمة الأدوات المدرسيّة وقالت محاولة تشجيعهم:

– السّنة القادمة أنتم من سيكتبها بيده.

– سيّدتي، أنا تعلّمت الكتابة والقراءة من سنة مضت، بإمكاني أن أكتبها من الآن.

تقف المعلّمة على المصطبة فتبدو للطّفلة شامخة. تحلم ببلوغ هذا المثال الذي عشقته قبل لقائه. البارحة لم تنم، سألت أمّها كثيرا عن

القسم وعن المعلّمة وعن الطّباشير والطّلاسة. استغربت الأمّ السّؤال عنهما:

– لِمَ تسألين عن الطباشير والطلاّسة؟

– قال لي أبي إنّ السبّورة واسعة جدّا وإنّه بإمكاني أن أكتب كلّ ما أريد عليها. أحتاج إلى كثير من قطع الطّباشير وطلاّسة إذن.

سكتت الصّغيرة قليلا ثمّ سألت أمّها ثانية:

– ستكون آنستي سعيدة بقدرتي على الكتابة، أليس كذلك، أمّي؟

– طبعا وستُحدّث بقيّة المعلّمين عنك وقد تأخذك معها إلى الأقسام الأخرى مفتخرة بك. يحبّ المعلّمون التلاميذَ المتميّزين الخلاّقين.

– إذن عليّ أن أرتدي أحلى الثّياب وأزيّن شعري..

ضحكت الأمّ محتضنة هذه التي تعتقد جازمة أنّها ستبلغ مرتبة من العلم والتميّز لا تُنافس:

– أنت حسناء ومع هذا كوني على يقين أنّني سأجعلك الأحلى..

غريب، كيف تراها أمّها بكلّ هذه الصّفات وتعلن المعلّمة العكس تماما؟

نزلت المعلّمة من على منصّة التّتويج واتّجهت نحوها. اعتدلت في جلستها أكثر ودقّ قلبها متسارعا. تهيّأت للخروج وصعود المصطبة افتخارا بها..

– وهل سألتك إن كنتِ تعرفين الكتابة والقراءة؟ تعلّمي: هنا لا أحد يتكلّم دون رفع إصبعه وإذني أنا. لا تنسيْ هذا!

ثمّ التفتت إلى بقيّة التّلاميذ:

– لا تنسوا هذا!

خيّم صمت رهيب وتمنّت هي أن تعود إلى بيتها الآن وقبل أن يرنّ الجرس. إنّها مستعدّة للتّنازل عن لحظة الخروج من القسم التّي انتظرتها منذ السّنة الماضية عندما جاءت مع والدها للتّسجيل في المدرسة.

يومها رأت التّلاميذ يخرجون من الأقسام راكضين ضاحكين فتمنّت أن تترك يد والدها وتهرب نحوهم. شعرت أنّ فيهم شيئا ما مازالت لم تعرفه وأنّها موعودة به قريبا وستستعدّ له من الآن. اليوم صارت أحد تلاميذ هذه المدرسة.

كان المدير لطيفا جدّا. ابتسم لها. اقترب منها. جلس القرفصاء ليقترب منها أكثر. أشار بإصبعه إليهم قائلا:

– السّنة القادمة ستكونين واحدة منهم وسأحيّيك كما سنفعل الآن أنا وأنت وسيردّون بابتسامة جميلة. سنقول لهم: "تصبحون على خير يا أولاد"، اتّفقنا؟ استعدّي.

شاركته التحيّة وكانت استجابة الأطفال أجمل ممّا قال. وعشقت معلّمتها القادمة أكثر..

ودّت أن تعود إلى أمّها وتسألها عمّا سمعته، أن تقول لها إنّ المعلّمة أبدا لا يسعدها تعلّمها القراءة والكتابة وإنّها تراها.. (قبيحة). في طريق عودتها إلى المنزل عدلت عن الأمر وتصوّرت أنّ المعلّمة قد "قست" عليها قليلا لتعلّمها آداب القسم. الأمّهات يفعلن هذا أيضا. حاولت استعادة ابتسامتها وسعادة اليوم الدّراسيّ الأوّل.

طرقت باب المنزل طرقا خفيفا. كانت حركة يدها الصّغيرة متراخية. فتحت لها والدتها بسرعة كأنّها كانت تقف خلف الباب. قبّلت جبينها وقالت:

– كيف كان يوم غاليتي الأوّل في المدرسة؟ منذ أن خرجت مع والدك وأنا أنتظر عودتك.. أتعلمين، أمضيت الوقت في استرجاع يومي الأوّل في المدرسة.

قبّلت صغيرتها مرّة ثانية:

– شكرا لك، بنيّتي، منحتني إمكان التذكّر وقد كدت أسلّم بأنّ كلّ شيء عشته قد تبخّر.

خجلت البنت من ذكرى أمّها، من اندفاعها في السّؤال ومن حرارة قبلتها. شعرت أنّ عليها أن تُسعدها، أن تُصوّر لها ما كانت تودّ أن تحيا. تحدّثت عن معلّمة لطيفة ربّتت على أكتافهم واحدا واحدا وسُعدت جدّا بقدرتها على القراءة والكتابة وعن ابتسامتها لهم وتحيّتهم وهم يغادرون القسم. لم تنس أن تتحدّث عن القاعة وعن جدرانها وعن الصّور الملصقة ورسومات بعض التّلاميذ وأخبرتها أنّها تفكّر في رسمٍ يُلصق هو الآخر.

أسعد الأمَّ ما سمعت لكنّها شعرت أنّ صغيرتها تصف عالما حالما.. ليكن، كلّنا هكذا بدت له مدرسته يوم دخوله. أسرعت تحضر لها قطعة شكولا لكنّ الفتاة لم ترغب في تناولها. قالت إنّها تحب أن تلعب مع دميتها وتحدّثها بما عاشته اليوم.

بسرعة دخلت غرفتها. صارت تكلّمها وهي تنزع ثياب اليوم الأوّل والميدعة. أخبرتها عن الوجوه الجديدة وعن الملابس والصفّ قبل الدّخول وكم أحبّت وقوف كلّ التّلاميذ والأيدي ممدودة على أكتاف بعضهم البعض. حدّثتها عن سيرهم بخطى ثابتة ومسرعة في الآن ذاته وهم يدخلون القسم. الكلّ كان مسكونا بهاجس المقعد الأوّل أمام مكتب المعلّمة. كانت سعيدة جدّا وهي تصف لها كيف فازت به ثمّ دخلت المعلّمة..

توقّفت فجأة عن الكلام. جلست إلى دميتها. مرّرت يدها الصّغيرة على شعرها الذهبيّ. سألتها:

– كيف أبدو لك؟ ألستُ حسناء مثلك؟ ألا يقول أبي وجدّتي إنّني في جمال الدّمى؟

لم تردّ الدّمية. كأنّها خيّرت الصّمت لتواصل الطّفلة الحديث.

– لنفترض أنّني لست حسناء وأنّني أبدو لهم هكذا فقط لأنّهم عائلتي ألمْ يكن على معلّمتي أن تُسعد بقدرتي على الكتابة والقراءة؟ أنا أذهب إلى المدرسة لأتعلّم، أليس كذلك؟

حرّكت الدّميةَ قليلا فرفّ جفنها:

– أعرف أنّك توافقينني الرّأي. أنا أذهب إلى المدرسة لأتعلّم ولا يعنيني إن كنتُ حسناء أم لا.. غدا سأكتفي بأن أرفع إصبعي متى سألت معلّمتي وقبلها سأقول: "حاضرة" ولن أقول: "أنا هنا" ولن أنسى أن أبتسم لمعلّمتي. أعلم أنّها ستحبّني وأنّها ستكون صديقتي.

ظلّت تذهب إلى المدرسة كلّ صباح وقد حملت معها ابتسامتها وحلمها. ترفع إصبعها مرارا ولا يُسمح لها إلاّ متى عجز الآخرون ولم يرفعوا إصبعا ثمّ صارت لا ترفع إصبعها إلاّ متى التفتت ولم تر غيرها قد فعل. لم تكن تحبّ أن ترى معلّمتها غاضبة باحثة عن إجابة لا تجدها كما لم تحبّ يوما أن يتعطّل الدّرس.

عشقت السبّورة ولوحتها. تراهما عالما بديعا يتّسع لها ولمعلّمتها ولكلّ ما تعرفه وما يمكن أن تعرفه يوما. تتأمّل جيّدا ما تكتب وتشعر أنّه يُحفر في زاوية قصيّة. للكتابة في القسم طعم آخر، طعم يشبه فتاة السكّر بجديلتيها القصيرتين.

سكنها الحرفُ فأحبّت أن تكتب رسالة. لم تقرّر لمن ستكون. ما يهمّها هو أن تنْظم الحروف كما تشاء. أن تمنحها ألوانا جديدة فيشعّ منها نورٌ يجعل الورقة مضيئة كالسّماء بنجومها البعيدة. فكّرت في أن تكتب لمعلّمتها. مازالت تحبّها رغم كلّ شيء. مازالت تراها كما تحب وتعلم أنّها هي الأخرى تحبّها فقط هي بعض الصّرامة لتكون أنجح. هكذا بدا لها الأمر أو ربّما هكذا ودّت أن يكون.

لم تُخبر أحدا بأمر الرّسالة حتّى أمّها، لعلّها لن تقبلها أو ربّما ستكتشف فيها أخطاء أو... جلست إلى مقعدها. رتّبت الأقلام بألوان قوس قزح وبدأت. كانت تكتب كلمات تشبهها علّها تحمل شعورا يسكن تلك الزّاوية التي تسكنها الحروف:

" معلّمتي عفوا سيّدتي،

انتظرتك من السّنة الماضية حتّى قبل أن أسجّل في المدرسة. رأيتك كثيرا في الرسوم المتحرّكة. كنت تعطفين عليّ. كنت تحبّينني جدّا وكنت

أستفيق كلّ يوم لأراك. أتعلّم الكتابة والقراءة بسرعة من أجلك. كنت أسمعك تصفّقين لي كلّما تعلّمت حرفا جديدا. انتظرت أن أكمل تعلّم الحروف جميعا لأكتب "معلّمتي" و"مدرستي". كنتِ جميلة جدّا وأنا أكتبك وكانت مدرستي تتلوّن بألوان أقلامي. أحببتُ الألوان لأنّها تجعلكما بألوان قوس قزح."

فجأة توقّفت عن الكتابة. شعرت أنّها لا تعرف التّعبير قدر ما تعرف رسم الحروف. خافت أن تخونها الكلماتُ وأن تقول شيئا غير الذي تودّ. لو كانت معلّمتها كمعلّمة صديقتها في الرّسوم المتحرّكة لكان الأمر أهون.

لم تشأ تمزيق الورقة. كان فيها شيء ما منها. شيء من حلمها، من تلك الزّاوية البعيدة حيث يسكن الحرف. خبّأتها بين كتبها واعدة نفسها بإكمالها وإهدائها لها يوما ما.

مازالت الرسالة هنا تسكن طيات الكتب منذ زمن بعيد، ظلت تحملها معها أينما رحلت حتى بعد أن صارت أما.

– أتعرف، بنيّ، في السّنة الأولى عشِقتُ الحروف. إن تشأ أن يكون خطّك جميلا فأحبّ الحروف والورقة والألوان. انظر إنّها أجمل كلّما غيّرنا لون القلم، ما رأيك؟

ابتسم الطّفل. شعر أنّه مقبل على عالم ملوّن يشبه مدينة الألعاب. بدت له الحروف أطفالا وحيوانات صغيرة فألبسها ما شاء من الألوان.

– أمّي، هل ستحبّ معلّمتي الحروف الملوّنة فأبي مثلا لا يحب غير اللون الأزرق؟

لم تستطع أن تقول له إنّ المعلّمات يحببن الحروف الملوّنة وأنّه إن تعلّم الكتابة والقراءة قبل دخول المدرسة ستفتخر به معلّمته و... لم تستطع أن تقول له ما قالته لها أمّها لأنّها اكتشفت غيره تماما في سنتها الأولى ولأنّها تعلّمت أنّ المعلّمات لا يشبهن فرح الأطفال المستفيقين قبل طلوع الشّمس يوم دخولهم المدرسة. لبعضهنّ لونان لا ثالث لهما: الأبيض على السبّورة والأحمر على الكرّاسات لأنّه لا دور للألوان في الإجابات، هكذا كانت تردّد معلّمتها كلّما راقبت التّمارين أو أصلحت الامتحانات.

– ربّما، لا أعرف بنيّ. مع هذا حاول أن تحبّها وإن لم تفعل فلَك أن تكتفي بالحروف، بها تبلُغ ما تشاء وبما تعبّر عمّا تشاء. لك أن تكتب رسالة مثلا، ما رأيك؟

– رسالة؟ أحبّ أن أكتبها لك وأحبّ أن تكون ملوّنة لكن بشرط..

– ما هو؟

– أن تقرئيها وحدك، موافقة؟

– لِم؟ ألا تحبّ أن تقرأها لي؟

– لا، أحبّ أن تقرئيها وحدك قبل النّوم، اتّفقنا؟

ابتسمت علامة موافقة وأسرع هو نحو غرفته. أغلق الباب فضحكت وتذكّرت زمن فعلت ما فعل وكتبت لمعلّمتها رسالة مازالت تسكن الدّرج.

بعد العشاء وقبل أن ينام قبّلها ودسّ في يدها ورقة صغيرة. غطّته. قبّلت جبينه وهي تشعر أنّه قد منحها إمكان استعادة طفولتها. أسرعت إلى مكتبها. فتحت الورقة المطويّة بعناية. بدت لها الحروف

نجوما تتلألأ. قرأت جملتين بكلّ ألوان قوس قزح: "أحبّك، أمّي وأحبّ الحروف الملوّنة."

شيء ما هزّها. هي تعلم أنّه يحبّها لكنّ الحروف الملوّنة جعلت قلبها ينبض بسرعة كبيرة وأحسّت أنّها تودّ أن تحضنه فلا يغادر ساعديها ولا قفصها الصدريّ. أخرجت رسالتها، تلك التي كتبتها منذ زمن. قرأتها، تأمّلت الحروف ثمّ أعادت طيّها. تمنّت لو أنّها كانت أكثر جرأة ومنحتها إيّاها. غريب أمرها، مازالت إلى الآن تحبّها وتراها كمعلّمة الرّسوم المتحرّكة!

اتّجهت نحو فراشها. شعرت أنّها طفلة وأنّ أمّها ستغطّيها وتقبّل جبينها وأنّها ستستفيق غدا قبل طلوع الشّمس تماما كيومها الدراسي الأوّل وأنّها ستحمل معها الرّسالة وتخبّئها في يد معلّمتها تماما كما فعل...

وجع الوطن.

قال لي صاحبي: لا أريد مكانا
لأدفن فيه. أريد مكانا لأحيا،
وألعنه إن أردت
....
درويش.

"ما أبدع أبناء بلدي! ما بصيص الضّوء هذا الذي لا يُنير غرفة بمتر مع ذلك يعشي البصر؟ كم هو ظالم هذا الذي يسمّي نفسه العالم الأوّل، نبتكر ويُقلّدون ثمّ لا نلقى جزاء ولا شكورا. من منهم يستطيع أن يرقى إلى مرتبة الابتكار وهو يقتل النّاس؟ من منهم تفطّن إلى متعة رحلة الموت وأنّها كلّما تشعّبت صارت أكثر تشويقا فمن يدري لعلّ السّجين يلفظ أنفاسه فجأة أو يُظهر شجاعة أكبر ممّا توقّعوا لتبدأ حينها لعبة الارتجال، ألا نتّفق جميعا على أنّ الارتجال قوّة ذهنيّة خارقة لا يطالها إلّا العباقرة؟"

نظروا إليه جميعا دفعة واحدة ثمّ عادوا إلى حواراتهم الثنائيّة. لعلّه بدا معتوها أو ربّما هو حسن ضيافة هذا المكان أو شيء آخر فيكفيهم أنّه لا يُشبههم.

صمت قليلا ثمّ أضاف:

– لا يبدو لي أنّكم...

– كُفّ عن الثرثرة!

تناهى إليه الصّوت من إحدى زوايا الزنزانة. بدا له بعيدا فظنّ أنّه يتوهّم ضيق المكان. لم تُعجبه لهجة الخطاب وهو الذي تعوّد أن يكون

سيّد المكان كلّما حطّ الرّحال وسيّد الأرض متى كان خارجا راحلا بحثا عن الحرية والإنسانيّة وكلّ ما قد شحّ في وطنه.

ثبّت قدميه على الأرض أكثر ثمّ نظر إلى حيث كان الصّوت. لا يحتاج الأمر إلى ذكاءِ فلمن يتلبّسون الزّعامة هيئةٌ لا يُخطئها أمثاله.

– لا تقل لي إنّك كنت تأمرني ولا تقل لي أيضا إنّك تفكّر في ضمّي إلى قائمة غلمانك؟

لم يفهم معنى كلمة "غلمان" لكنّه أدرك أنّ هذا "الرّقم" الجديد يتحدّاه وأنّه لا يهابه وبكلّ خبرته أدرك أنّه عليه ألاّ يفكّر في مواجهته مع ذلك عليه ألاّ يبدو ضعيفا وإلاّ أمضى بقية حياته هنا ذليلا. يعلم جيّدا أنّه إن جبُن الآن سيصبح الكلّ أسياده. تلك هي لعبة الأقوياء والجبناء: مجرّد تبادل مواقع.

حاول أن يظهر في صورة اللامبالي. لكنّ هذا "الرّقم" الجديد بدا لحوحا.

– ثمّ ماذا؟ ماذا تُريد؟ ها قد ألقيتَ خطبتك واستمعنا.

– خُطبة؟ عن أيّ خطبة تتحدّث؟ آه نسيت أنت ابن ثقافة ممزّقة بين خطب أسيادها و خُطب أئمّتها للأولى تُصفّق وللثانية تقول: آمين والحقيقة أنّهما نتاج فرد واحد.

ثمّ خامرته فكرة مجنونة فأضاف:

– لا تقل لي إنّك تخطب هنا أيضا يوم الجمعة وفي الأعياد الوطنيّة وربّما في عيد الشّجرة ههههه

أزعجه فعلا ما أضاف لكنّه مازال مصرّا على الهدوء. حرص على أن يكون الكلام موجّها إلى "غلمانه" وألاّ يسيء إليه مباشرة. بحث في بقايا مهاراته التواصليّة عن جملة تُلخّص ما يريد قوله وأدرك كم هو عسير أن تكون ذا خُلق:

– لا تهتمّوا به، ليقل ما يشاء. يبدو أنّه خرج للتوّ من هناك.

الكلّ في هذا المكان يعلم "هناك" هذه، يعلم أنّ شيئا ما يُسرقُ ولا يُعاد وأنّ جُرحا غائرا يُحفر وأنت في كامل وعيك وبعض إنسانيّتك ولا يُخاط رحمة بك ورفقا ببقايا جسد تكرهه بمرور الزّمن لأنّه علامة ذلّك.

جميل أن تخرج من هذه ال"هناك" جثّة هامدة، أن تنتصر عليهم فتصعد روحك ولا يطالها أحد. لكنّه لا يموت، هذا الرّقم لا يموت!

تقدّم فانشدّت إليه الأبصار وكفّت الأيدي عن الحركة ولعب الورق. كانوا جميعا مستعدّين للتنازل عن أسرّتهم له. تمدّد وعلّق بصره بالسّقف، بالسّماء وتذكّر هذه الوجوه التي كرهها. كم يودّ أن يتقيّأ كلّما رآها. في داخله قناعة ثابتة أنّهم ليسوا أبناء وطنه وأنّهم خُلقوا لشيء آخر لم يخلق له بقية البشر. يتذكّر هذا دائما كلّما كان هنا وتسيطر عليه الفكرة فيزداد عصيانا ويزدادون رغبة في إرساله إلى قبر يرفضه لأنّه أعظم من الموت.

كان يحلم بوطن يشبه كلّ الأمّهات حينما سرقوه من الحلم ورموه في سيارة تفوح منها رائحة أجسادٍ تمرّدت على القيد ووهم الفجر الذي جاء على غير موعد. تعمّدوا أن يحاولوا اغتيال بريق يسكن عينيه علّ وهج روحه يتلاشى. إنّهم يعجزون عن النّظر في عينيه حتّى وهو مقيّد اليدين. يتعمّد مستجوبه العبث بالأوراق أو التّدخين أو النّظر إلى السّقف لكنّه لا ينظر إليه أبدا. يعلمان أنّه لن يحوّل بصره بعيدا وأنّه لن يطأطئ رأسه ويُسكِن بصره الأرض. كان يسعده هذا التوافق بينه وبين سارق حريّته حينا من الزّمن. وتذكّر أنّه قال لواحد منهم ذات يوم:

– اِعلم أنّني لن أُنجِب يوما ولن يكون لي ما تفكّرون في أنّه
يمكن أن يجعلني أهرب ببصري منكم وأنتم تُذكّرونني بعرض
ستنتهكونه وابن ستوارونه التّراب، تذكّر هذا دائما!

يعلم جيّدا أنّه يتمنّى أن يكون أبا لكنّهم سرقوا الحلم. ليكون حرّا عليه أن يكون وحيدا. سيكتفي بأن يعلّم الآخرين الحياة. سيكون له أبناء بعدد كلام قاتله وكذب الحكّام والنّخب السّاذجة التي تبيع وهما تعجز عن الإقناع به. ما يعنيه هو من إنجاب الأبناء؟ لا شيء... بل كلّ شيء فأمثاله هم من يستحقّون الحياة بكلّ أشكالها والغريب أنّ غيره من يتناسل!

لم يشأ أن يُفكّر في الأمر أكثر. نهض، توجّه نحو الجدار وكتب: "الأيادي المرتعشة لا تقوى على البناء كما أنّ الجبناء لا يصنعون التّاريخ."

ابتعد قليلا. ظلّ ينظر إلى الحروف كأنّه ينتظر تشكّلها. توقّفوا عن كلّ شيء. صار الشّيء الوحيد الذي يستحقّ صمتهم. عاد بخطى لا تشبههم وظلّ ينظر إلى ما كتب. حاولوا القراءة وأدركوا أنّ فيهم شيئا ما منه فهُم أيضا يمقتون الجبن وسواعدهم لا ترتدّ ولا تُكسر. اقتربوا منه واحدا تلو الآخر. ودّوا أن يسألوه كثيرا لكنّهم تراجعوا. أسئلتهم غبيّة

وهو يبدو عليما بحقيقة الدّنيا. عمّ سيسألونه؟ عن تهمته؟ الأمر واضح هو ليس منهم مع ذلك خمّنوا أنّه ممّن يُنعتون هنا بـ"أعداء الوطن" فيكفيهم ما كتب ليدركوا الحقيقة. لم ينته المطاف إليه. كأنّ شيئا ما حال بينهم وبينه. لعلّه حبّ الوطن فهم قد يسرقون ويقتلون ربّما لكنّهم أبدا لن يُفكّروا في خيانة "حرية الوطن".

أدرك خوفهم. ابتسم فابتسموا ثمّ قال:

– اقتربوا، لن يطالكم شيء. إنّهم لا ينظرون إليكم خارج الجريمة. أنتم بالنّسبة إليهم لا تُفكّرون، فقط تكتفون ببثّ الرّعب في نفوس الآخرين ليجدوا هم مبرّر حضور.

لم يفهموا جيّدا ما قال لكنّهم شعروا بتعاطفه معهم فاقتربوا. سألهم عن هذا المكان وكم مرّة عادوا إليه ولِم يعودون فيقتلون إنسانيّتهم؟ لم تكن الجدران تعني لكثير منهم كلّ ما قال بل إنّ بعضهم يعتبرها ملاذا، هو من أولئك الذين لا مأوى لهم ومع هذا لا أحد يعترف بوجودهم في وطنه، لا أحد يتحدّث عن"S.D.F."

الآن – وهو يتكلّم – صار السّجن سجنا وصارت الجدران قبورا، طولا بلا عرض. غريب الأمر، لا أحد جعلهم يفكّرون في السّجن كما

فعل حتّى عندما كانوا يخرجون لأيّام أو لأشهر - وهُم يعلمون أنّهم قريبا يعودون - لم يدفعهم أحد إلى التّفكير في السّجن بل إنّهم كانوا يرون الخوف في العيون فتتملّكهم سطوة الحضور. حتّى ازدراء الآخرين لم يكن في نهاية الأمر سوى خوف من ردود أفعالهم. كان ازدراء جبانا، هكذا كان يبدو لهم وهاهم يكتشفون الآن أنّه على هذه الأرض من يراهم بعين غير عيون الجماعة وأنّ فيهم شيئا ما يُشبه البشر وأنّ بإمكانهم أن يحظوا بابتسامة صادقة وكلمة شكر لا ترتعش شفتا قائلها خوفا منهم أو من أن تفضحه الحروف وهي تُعرّي نفاقه.

ودّوا أن يعبّروا له عن امتنانهم، أن يُصافحوه بكلّ ما فيهم من قوّة جسديّة ليُعلنوا له أنّه مختلف وأنّهم سعداء باستعادة ما فقدوا معه تماما كاستغرابهم سرعة تأثّرهم به. حدّثهم عن الأرض، عن الوطن، عن الحريّة، عن القدرة على الفعل. قال إنّ الإنسان لا يكون إنسانا إلاّ متى كان عصيّا على الذلّ وأنّ الكرامة لا تُباع ولا تُستبدل بطمأنينة واهمة وأمن كاذب لا تحظى به إلاّ متى طأطأت رأسك. قال أيضا إنّ الفعل لا يكون بالكلام وبترديد جمل ملّتها الآذان ومع هذا مازال البعض يُردّدها ليُثبت لنفسه أنّه موجود وأنّه "بطل"...

تحدّث كثيرا. لم يكن ينظر إليهم مع هذا أسعدهم الإنصات إليه. لم يكن معلّما ولا مُرشدا، كان يشبه شيئا ما فيهم: كان رجلا لا

ينحني ولا يُهزم. كان شامخا وكانوا يرغبون في الصّعود فهُم أيضا أصحاب إرادة وقدرة على الفعل لكنّهم لا يُدركون الحقيقة مثله. سألوه عنه، عن السّجن وعن النّاس وعن إصراره وتضحيته والحال أنّ النّاس خارجا يلهثون وراء مشاغلهم اليوميّة لا أكثر. كانت إجابته غريبة ربّما لأنّهم انتظروا أن يسبّ ويشتم. قال:

. لهذا أنا هنا، اخترت أن أكون ممّن يُسابقون الرّيح ليستعيدوا الحياة قبل أن تُغلق الأبواب وهُم اختاروا أو أُجبروا على إغلاق الأبواب كي لا تطالهم الرّيح ولا تُصفّر بين أجسادهم والثّياب.

مرّة أخرى لم يفهموا كلّ ما قال لكنّهم صاروا يرونه رمزا وأدركوا كم تكون جبانا وأنت تسرق ميّتا أو شحّاذا أو خوّافا. تركوا لأنفسهم مجال التّعبير واسعا. حدّثوه عن كلّ شيء، عمّا لم يعترفوا به لأحد واكتشفوا أنّهم للتوّ يدركون وجها آخر منهم وأنّهم يحتاجون إليه كي لا يكونوا جبناء. ابتسم لهم وبصره معلّق بالجدار..

استأذنوه في الذّهاب إلى النّوم. الليلة سيكونون على موعد مع حلم جميل واستفاقة لا تشبه ما عاشوه. غدا سيحتفلون به، بِهم وبالحياة.

مضى الليل سريعا. كان نور الشّمس أكثر حضورا. بحثوا عنه بأبصارهم. كان سريره فارغا ومرتّبا. أتراه خرج في فسحة؟ لا يمكن،

فللفسحة وقت معلوم. أتُراهم استدعوه لزيارة؟ ربّما.. لو شكا ألما البارحة لاستفاقوا. لا يمكن أن يسرقهم الحلم إلى هذه الدّرجة وهُم الذين تعوّدوا نوم الذّئاب!؟ انتظروا بعض الوقت ثمّ قرّروا أن يسألوا عنه.

– لا أعلم، قيل إنّ سيّارة ما جاءت البارحة محمّلة بأمر نقله إلى مكان آخر لا نعلمه.

هكذا أخبرهم الحارس ثمّ مرّ إلى الزنزانة التّالية..

كان الخبر فاجعا. لأوّل مرّة يشعرون بالفقد. صاحوا بأعلى أصواتهم. زلزلوا الأرض بأسرّتهم والقرعِ على الباب. من بالخارج لا حول لهم ولا قوّة، هكذا قالوا لهم. هم أيضا يعلمون لكنّ هذا الرّقم الذي صار رمزا لا يمكن أن يُسرق ليلا بكلّ جبن.

عادوا إلى أسرّتهم وفي العيون بريق ثابت، تعلّقت عيونهم بالجدار وبدأ أحدهم يسترجع بصوت مرتفع بعض ما قاله لهم:

– علاقاتنا بواقع أوطاننا تماما كعلاقاتنا الزّوجية: تجد نفسك في مواجهة أحد الخيارات التّالية: إمّا أن تكون في حرب لا تنتهي لأنّك لا تقبل الاعتراف بغيرك أو أن تطأطئ رأسك

وتنتهي مجرّد اسم يُتذكّر زمن الحاجة أو أن تبحث لك عن سبل الحياة الحق فتكون أنت ومن معك حقيقين بها. الوطن لا يتجزّأ وكذا الحياة فيه...

بقايا جسد.

"اليوم، دوري أنا في الكلام."

فاجأت كلّ من بالقاعة. حتّى طبيبها النفساني لم ينتظر أن يسمع صوتها. يذكر جيّدا أنّها مذ دخلت هذا المكان لا كلّمت أحدا ولا بادرت بالابتسام. كانت انطوائيّة جدّا ولو لم تكن كذلك ما كانت لتدخل المصحّة. حاول مرارا أن يجعلها تتحدّث، أن يُشعرها بأنّه هنا للاهتمام بها لكنّها كانت تمقت حضوره. بدا له التّعامل معها عسيرا جدّا لكنّه ظلّ ينتظر.

كانت جالسة كغيرها من الحاضرين يكوّنون حلقة توهمهم بالقوّة وبالخلاص من العالم الخارجيّ القذر. حاولت النّظر إليهم لكنّها سرعان ما هربت ببصرها بعيدا. لم يكن صوتها مرتعشا فقد ناب عنه الجسد في حركة لاإراديّة جعلتها تبدو كالعصفور المبلّل في ليل الشّتاء الطّويل.

– أعرف أنّكم تنتظرون جميعا وأنّكم ربّما تودّون التسلّل إلى رأسي لتعلموا كلّ شيء. الحقيقة أنّ ما سأقوله يسكن القلب واللسان. لا شيء هنا، في هذا الرّأس الذي لا يراه غيري ولا يعترف به أحد. ثمّ ما الحاجة إليه مادامت الحياة مختزلة في حركة الأيدي وبقيّة الأعضاء؟

أتعلمون، أنا أكره جسدي. أمقته. أودّ أن يتلاشى، أن يعلو ثمّ وبحركة إصبع لا شيء، لا شيء.. لا شيء غير الخواء..

ضمّت ساقيها واحتضنت جسدا واهنا تحميه من نظرات هؤلاء الذين صاروا فجأة يتأمّلونه فيزيدونه خواء ويمزّقونه أكثر. تعلم جيّدا أن لا حاجة إلى أن تكون فاتنة لينظروا إليها.

– الحقيقة أنّني تساءلت كثيرا لم كانت للنّاس رؤوس؟ ما حاجتهم إليها؟ إنّها ثقيلة بما يكفي للخلاص منها ثمّ إنّ...

فجأة قاطعها أحد الحاضرين:

– أمّا أنا فرأسي غير ثقيل وكيف يكون ثقيلا وأبي يقول لي مذ كنت صغيرا أنّه لا دماغ لي كبقيّة البشر ثمّ كان الرسوب في الدّراسة و"استغباء" النّاس لي علامة إثبات. أنا ممّن لا حاجة بهم إلى الخلاص من رؤوسهم.

لم يعجبها ما فعل مع هذا شعرت أنّها مازالت قويّة تماما كما قرّرت أن تكون منذ الليلة الماضية.

– ومَن قال لك إنّ من أتحدّث عنهم يشبهونك؟ من أتحدّث عنهم لا يغيبون وأدمغتهم كطواحين الهواء. من أتحدّث عنهم مازالت أيديهم محفورة هنا، في كلّ مكان فيّ. يكفيهم أنّهم جعلوني أشعر بأنّه عليّ أن أقتل هذه اللعنة التّي تُسمّى جسدا وأن أطأطئ رأسي كلّما مشيت في الشّارع لأنّه لا قدرة لي على ستري وأنا أعلم جيّدا أنّني لم أكن يوما عارية. يكفيهم أنّهم جعلوني أعشق الثياب الرثّة كي لا ينظروا إليّ ثمّ اكتشفت أنّني بهذا أجعلهم يستبيحونني أكثر لأنّ ثيابي تصرخ بأعلى صوتها: "هذه، لا سند لها." أتعرف معنى أن يستبيح جسدَك أحدٌ؟ أتعرف معنى أن تُمدّ إليه يد في وضح النّهار وتنهرك العيون عن الصّراخ فيتلوّى قلبك داخلك ثمّ يعتصر وتسيل دموعك دما؟ أتعرف معنى أن تكون ضعيفا، ضعيفا جدّا لأنّك طفل ولأنّ مجتمعك لا يعترف بشهادات الأطفال ولأنّ سمعة الأهل أهمّ من ألمك؟ أتعرف معنى أن تحاول جاهدا تخليص جسد بالكاد يتشكّل من بين يدين غليظتين وعينين ناهرتين وفم قذر قبيح؟ أتعرف معنى أن

تشعر أنّك ليلى وأنّه الذّئب لكنّ أباك لن يأتي ليُخلّصك

ولن تُفتح بطن آكلك لتخرج معافى كيوم ولدتك أمّك؟

لم أكن أعلم لِمَ؟ كلّ ما كنت أعلمه هو أنّ خروجي من البيت وجع وأنّني لا أعود سالمة أبدا. حتّى عندما كبرت وخلت أنّني قادرة على حماية نفسي بخطاي الثابتة ونظرتي النّاهرة لم أحم هذا الجسد اللّعين. كانت عيناي تخونانني وكانت خطاي ترتبك أكثر كلّما شممت رائحة الأجساد القذرة. أقف بعيدا من النّاس. أنتظر طويلا لشراء شيء ما فقط حتّى لا يطال الآخرون جسدي. كنت أعلم جيّدا قوانين لعبة الأجساد حين الزّحام وفرق كبير بين أن تعبر الزّحام وأنت مشدود إلى حاجتك وبين أن تعْبُره وأنت تجرّ وراءك حِملَ جسدٍ يُستباح كلّ آن ومع كلّ يد تمتدّ جرح ينزف حتّى تتخيّل أنّ طوفان الدّماء سيرحل بالجميع وأنّ الكلّ سيلعنك لأنّك سبب البلاء. كنت أخاف أن يعاقبني والداي وأن تجلدني نظرات الشكّ فأتحوّل إلى داء مُعد عليهم الخلاص منه كي لا يصيب بقيّة مَن بالبيت. صرت أكره شيئا ما فيّ وصرت أتمنّى

أن يفنى الذّكور والإناث. لم كانت الأجساد؟ لم كانت المعايير الأخلاقيّة الكاذبة مادامت عاجزة عن حمايتي، مادامت تعاقبني لذنب لا علاقة لي به؟ لو سُئلت لأجبت أنّني لا أودّ أن أكون أنثى أو ربّما لا أودّ أن أكون أصلا.

ذات مرّة فكّرت في أن أخبر أمّي بالأمر. كنت خائفة، مع هذا انتظرتُ أن تأخذني بين ذراعيها وأن تحميني منهم ومنّي ومن جسدي. أخبرتها بأنّ صاحبَ الدّكان المجاور سيّئ الأخلاق ويتحرّش بالفتيات. يا اللــــــه، فجأة صارت شيئا آخر! أقول "شيئا" لأنّها لم تكن تشبه أمّي ولا حتّى بقيّة البشر. سألتني إن كنت أتحدّث عن نفسي وأنّه عليّ ألاّ أقول هذا الكلام ثانية وأنّها لن ترسلني إلى الدّكان مرّة قادمة وتتالت القرارات وصارت كالمطرقة تدكّ جسدي الضّعيف لتتبخّر معه صورة الأمّ التي رسمتها لنفسي كذبا وخيالا وغباء.

كانت أمّي كغيرها من النّساء تخاف ردّ فعل أبي ولا تحيا خارج قانون السّمعة الكاذب. يومها أدركتُ لِم كان جسدي مباحا؟ لأنّه عليّ أن أسكت ولأنّه سيُمزّق أكثر إن تكلّمتُ

ولأنّ الله قد خلقني أنثى وعليّ أن أتحمّل الوزر ما دمتُ أتنفّس.. كثيرة واجبات هذا الجسد وهو واهن لا قدرة له على تحمّلها..

صار جسدها يميد وهي على الكرسيّ. شيء ما داخلها كالأعاصير يحرمها ثباتا تشبّثت به منذ البارحة حتّى أنّها خيّرت ألاّ تنام خوفا من أن تفقده في كوابيسها. وذرفت عيناها دمعتين، دمعتين بحجم الفقد والألم معا.

تمنّى الطبيب لو كان بإمكانه أن يحضنها. شعر بأنّه يودّ فعلا أن يفعل، أن يحتويها ويبعث فيها روحا تخلّصت من كلّ شرور العالم. لم يفعل لأنّه من الغباء أن يقترب من جسد براكينه للتوّ انفجرت. لم يكن يخاف الحمم كان يخاف أن تتطاير فتُمزّقه، أن يتلاشى كما تتمنّى هي.

استمرّ الصّمت طويلا. توقّف جسدها عن الحركة..

– أتعلمون، أقذر ما في الجسد الرّأس والغريب أنّنا به نتباهى وبه نتوهّم أنّنا بشر. لا أدري لكنّني لم أجد معادلة لهذا الذي قسم دماغه شطرين: شطرا ينوبه اللسان فيرسم لنا

وهمَ الخير والطّهر وكلّ هذه الأكاذيب وشطرا تنوبه بقيّة الجسد، يهدم هذا الوهمَ الذي رُسم ويجرفه حتّى صار قاعا صفصفا. لم يبق لي غير القاع. أخاف أن تتراكم فيه القاذورات، أخاف أن أتوهّم متعة القذارة فأصبح مثلهم. لا أحبّ أن يكون دماغي بشقّين، أحبّ أن أكون أنا، تماما أنا..

خيّرت أن تنسحب من الجلسة. كانت تعلم أنّها قد قالت الكثير وأنّ ما سكنها صار حرّا طليقا وأنّ بقاياه فيها لم تعد بركانا. وتمنّت لو أنّها مُنحت إمكان الكلام قبلا. الآن لا أحد من أهلها يعلم أين هي والثّابت أنّهم يتعمّدون نسيان اسمها. فاجِع الموت متى غيّبَتك أيدي من تحب!

– ما ضرّهم لو حاولوا حماية هذا الجسد الواهن؟ ما ضرّهم لو كنت أهمّ من السّمعة والشّرف الكاذب؟ ما ضرّ الكلّ لو نسوا جسدي؟ ما ضرّهم لو كنتُ بشرا؟ ما ضرّهم لو استمرّ الحياة دون أن أدخل هذا المكان؟

الفهرس..

		الصفحة.
1.	الدراجة الفرس..........................	؟؟
2.	غباء..................................	؟؟
3.	افتراض................................	؟؟
4.	ثلاثة حروف...........................	؟؟
5.	حلم وفقد..............................	؟؟
6.	سؤال.................................	؟؟
7.	على موعد مع..........................	؟؟
8.	هذا ليس لك...........................	؟؟
9.	القلم الأحمر..........................	؟؟
10.	منح العمى...........................	؟؟
11.	لا شيء ينام.........................	؟؟
12.	أنا هنا..............................	؟؟
13.	وجع الوطن...........................	؟؟
14.	بقايا جسد...........................	؟؟